نيكوس كزنتزاكيس

تصوُّف

منقذو الآلهة

ترجمة

سيد أحمد علي بلال



نيكوس كزنتزاكيس

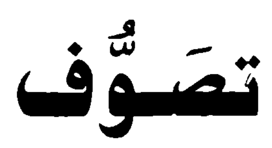


تَصَوُّف

ترجمة:

سيد أحمد علي بلال




تَصَوُّف



المؤلف: نيكوس كزنتزاكيس
عنوان الكتاب: تصَوُّف
المترجم: سيد أحمد علي بلال
الناشر: دار المدى
الطبعة الأولى: ١٩٩٨
الطبعة الرابعة: ٢٠١٣

Author: Nikos Kazantzakis
Title: The Saviors of God
Translator: sayyed Ahmed Ali Bilal
P.C.: Al-Mada
First Edition: 1998
Fourth Edition: 2013

دار المدى للثقافة والنشر

بيروت - الحمراء - شارع ليون - بناية منصور - الطابق الأول -
تلفاكس: ٠٠٩٦١(١)٧٥٢٦١٦ - ٠٠٩٦١(١)٧٥٢٦١٧

www.daralamada.com Email: info@daralmada.com

سورية - دمشق ص.ب.: ٨٢٧٢ أو ٧٢٦٦ - تلفون: ٢٣٢٢٢٧٥ - ٢٣٢٢٢٧٦ - فاكس: ٢٣٢٢٢٨٩

Al Mada Publishing Company F.K.A. - Damascus - Syria
P.O. Box: 8272 or 7366. - Tel: 2322275 - 2322276 - Fax: 2322289

بغداد - أبو نواس - محلة ١٠٢ - زقاق ١٣ - بناء ١٤١
مؤسسة المدى للإعلام والثقافة والفنون
Email: info@almada-group.com
www.almada-group.com

ISBN: 978-2-843050749

مقدمة المترجم

أدين بالشكر لكل من صوفيا كاوورا وخريستو اسكوبرا زميلي الدراسة والحياة في اثينا فلهما يرجع الفضل في ولوجي عالم كزنتزاكيس اللغوي الرحب.

داهمتني فكرة ترجمة "تصوّف" عام ١٩٨٣ وهو العام الذي احتفل فيه اليونانيون بمرور قرن على ميلاد نيكوس كزنتزاكيس وربع قرن على وفاته. لذلك فإن ترجمة هذا الكتاب للعربية تدخل ضمن ذلك الإطار الاحتفالي. وأستطيع أن أقول، في حدود علمي، أن هذه الترجمة هي الأولى لكزنتزاكيس التي تتم من اليونانية إلى العربية مباشرة، إذ أن التراجم السابقة لأعماله مرّت عبر الإنجليزية، وربما لم تتأثر أعماله التي ترجمت سابقاً إلى العربية خصوصاً وأنها روايات، إلا أن طابع هذا الكتاب: "تصوّف" نفسه هو الذي يفرض ضرورة ترجمته من اليونانية مباشرة، لأنّه نصّ فلسفي - شعري، يجسّد رؤيا كزنتزاكيس الأساسية التي عبّر عنها في ما بعد من خلال أعماله الروائية.

نيكوس كزنتزاكيس معروف لدى قارئ العربية برواياته "زوربا اليوناني" و"المسيح يصلب من جديد" و"الأخوة الأعداء"وسيرته الذاتية "تقرير إلى الجريكو"، لكن أعماله تفوق الثلاثين عملاً أدبياً تتوزّع بين الرواية وأدب الرحلات والسيرة الذاتية والترجمة والتاريخ والنقد الأدبيين.

وُلد نيكوس كزنتزاكيس في جزيرة كريت عام ١٨٨٣ وتلقّى تعليمه في جامعة أثينا ثم باريس على يد البروفسور برجسون. طاف كزنتزاكيس في بلدان أوروبية كثيرة، لكنّه عاد واستقر في جزيرة "إِيجنه" إبّان الحرب العالمية الثانية منقطعاً للتأليف الأدبي والفلسفي.

كتاب "تصوّف" الذي يعود تخطيطه الأوّلي إلى العام ١٩١٤، ربما مثّل الرؤيا الأساسية لكزنتزاكيس الشاعر والمفكّر معاً. حينها كان كزنتزاكيس في الثلاثين من عمره، وكان في زيارة للجبل المقدّس "آيوس أوروس" بشمال اليونان يرافقه صديقه الشاعر سكيليانوس، حيث أمضيا ثلاثة أشهر كاملة متجوّلين بين أوديته. عموماً كان لهذه التجربة أثرها المستقبلي على أعمال الكاتبين. أما الصياغة النهائية للكتاب فتمّت في العاصمة الألمانية برلين ما بين كانون الأول/ديسمبر عام ١٩٢٢ ونيسان /ابريل ١٩٢٣، لكن الكتاب لم يرَ النور إلّا في العام ١٩٢٧.

إحدى السمات الأساسية للتأليف عند كزنتزاكيس هي

كتابة المخطّط الأوّلي للتجربة التي يروم تناولها، ثم استعادتها بعد زمن لوضعها في صيغتها النهائية. ففي الفترة التي كان يعيد خلالها صياغة "تصوّف" كان يدوّن المخطط الأوّلي لرواية عن بوذا لم يكملها إلا عام ١٩٥٦. أما رواية "المسيح يصلب من جديد" التي كتبها عام ١٩٤٨ فهي مجرّد تكثيف روائي لقصيدة بعنوان "المسيح" كان قد كتبها عام ١٩٢١، ورواية "زوربا اليوناني" التي كتبها ما بين ١٩٤١–١٩٤٣ استلهمها بعد ملاقاته أليكس زوربا الحقيقي في منطقة البلوبونيز بجنوب اليونان عام ١٩١٧.

وكما أن المبدع يتأثّر بقدر ورموز عصره، فإن كزنتزاكيس نفسه لا ينكر تأثير نيتشه وبرجسون عليه، لكنّه يؤكد تأثير "اوديسياس" و"زوربا" عليه، ويكتب سيرته الذاتية في شكل تقرير إلى "الجريكو"، ورغم أنّه ترجم فاوست جوته، وجحيم دانتي، وأهم كتابات نيتشه إلى اليونانية، كما ترجم الإلياذة والأوديسا من اليونانية القديمة إلى اليونانية الحديثة، وكتب أوديساه الخاصة التي تتكوّن من ٣٣٣٣٣ بيتاً والتي اعتبرها بمثابة "ملحمة القبيلة البيضاء"، إذ تبدأ من حيث انتهت أوديسا هوميروس، ورغم كل هذا لا يبدو أنّه كان يحاول أن يكون هوميروس عصره بقدر ما كان ينحو أن يكون أوديسياس جديد، وأن يتابع رحلة ملك جزيرة إيثاكي إلى عوالم أخرى. إن المسيرة والطريق الصاعد لاستشراف آفاق أوسع هي ملامح الأوديسيا، التي تتركّز في رؤيا كزنتزاكيس الشاب لتقوده إلى الاكتشافات الجديدة نحو الجذور والأوراق.

"تصوّف" هو المخطط الأوّلي لمسيرة الاكتشافات الموعودة،

وهو البذرة التي نبتت في مؤلفاته الروائية والشعرية اللاحقة، لذلك يمكن اعتبار هذا الكتاب "دليلاً" يقود القارئ عبر عوالم كزنتزاكيس الروائية، وفي الوقت نفسه يمكن النظر إليه كمحطة أساسية لقياس تطوّره اللاحق.

مرحلة "تصوّف" مثّلت حقبة الإرهاصات الكبرى لدى كزنتزاكيس، إذ كان يجاهد أثناءها لكتابة رواية شعرية عن بوذا لم تكتمل إلا في سنوات حياته الأخيرة. وبعد أن أكمل "تصوّف" في برلين غادرها إلى إيطاليا قاصداً منطقة القديس فرنسيس بالذات ليكتب عنه في ما بعد كتاب "الفقير إلى الله".

رؤيا كزنتزاكيس الشاب الواردة في "تصوّف" ليس لها امتداد تجريدي آخر، فهو لم يحاول مثل هذا النوع المتناسق من الخطاب اللاهوتي، وإن توزّعت مقاطع كاملة منه في أعماله اللاحقة. لقد ظلّ في ما بعد ملتصقاً بالتجربة، يتعلّم ويعلّم منها. وكما أسلفنا أن رواية "زوربا اليوناني" الذائعة الصيت استندت إلى تجربة لقاء كزنتزاكيس بزوربا الحقيقي على السواحل الجنوبية لليونان حيث كان زوربا يعمل في قطع الأخشاب. وقال كزنتزاكيس عن تلك التجربة "لقد تعلّمت من زوربا حب الحياة". أما رواية "الكابتن ميخايلي" فهي قصة حياة والد كزنتزاكيس، بينما سجّل في "الأخوة الأعداء" معاناته الشخصية حول الحرب الأهلية اليونانية.

كان كزنتزاكيس أميناً لرؤاه وتجاربه بقدر صمود هذه

الرؤى والتجارب أمام التساؤل. فالرجل الذي عاش في عصر عاصف اجتاحته عدّة حروب "الحربان العالميتان الأولى والثانية والحرب الأهلية اليونانية"، وشهد احتلال الإيطاليين والألمان لبلاده، ظلّ أميناً في دعوته للسلام وسط ركام النصف الأول من القرن العشرين. وقد خصّه مجلس السلم العالمي بجائزة السلام لعام ١٩٥٦. ويذكر الصحافي اليوناني اسبيروس اليكسيو في مقال له نشرته صحيفة "كل يوم" بمناسبة الذكرى المئوية لميلاد كزنتزاكيس أن الكاتب اليوناني كان يتراسل مع الزعيم الهندي المهاتما غاندي داعية اللاعنف.

وحين وضع الفاتيكان كتابه "الإغواء الأخير للمسيح" ضمن القائمة السوداء، كتب لهم قائلاً "أيها الآباء المقدّسون لقد قدّمتم لي اللعنة، أما أنا فأقدّم لكم الشكر. أتمنى أن يكون ضميركم صافياً كضميري، وأن تكونوا أخلاقيين ومتدينين مثلي".

على قبر كزنتزاكيس في هراكليون عاصمة كريت نحتت العبارات التالية: "لا أطمع في شيء... لا أخاف من شيء... أنا حرّ". كان هذا شعاره الذي أخذه عن قصة هندية، وضمنه روايته "تودارابا". وتقول القصة أن هندياً كان يقود قاربه مقاوماً تيار النهر الجارف الذي يدفع القارب نحو شلّال صخري، وبعد أن استنفذ كل طاقته في مقاومته التيار ترك مجذافيه وبدأ يغني مردداً "آه... فلتكن هذه الأغنية حياتي... أنا لا أطمع في شيء... ولا أخاف من شيء... أنا حرّ".

"الذي لا يسَاوِم" عنوان كتاب هيلين كزنتزاكيس عن

زوجها نيكوس. أجل لم يساوم وإنما سار بقاربه إلى أقصى حدود طاقة الإنسان، وظلّ يكتب ويكتب حتى وهو على فراش الموت، كما تقول هيلين في مقدمة كتابه "تقرير إلى الجريكو".

تطمح هذه الترجمة إلى المساهمة في التعريف بعنفوان كزنتزاكيس الشاب من خلال هذا النص الفلسفي الشعري "تصوّف" الذي يعتبر بحق ملحمة للتساؤل.

كما تتوخّى بعد قرن ونيّف على ميلاده، وأربعة عقود على وفاته التذكير بالروح "القلقة المتمرّدة" - روح كزنتزاكيس التي تخطّت الحدود الضيّقة للّغة اليونانية وفاضت على اللغات الأخرى بإبداعها المتنوّع.

تقول هيلين كزنتزاكيس عن "تصوّف": "حين أعطاني نيكوس كتاب تصوّف عام ١٩٢٤ لم أندهش لدرجة الجنون، لكنّني ما زلت أعتبره المفتاح الأساسي لكل أعماله".

المترجم

تحيَّة إلى باندياللي بريفلاكي

(نيكوس كزنتزاكيس)

مدخل

نأتي من هاوية مظلمة وننتهي إلى مثيلتها. أما المسافة المضيئة بين الهاويتين فنسمّيها الحياة.

لحظة أن نولد تبدأ رحلة العودة. الانطلاق والعودة في آن. كل لحظة نموت. لهذا جاهر كثيرون أن هدف الحياة هو الموت.

ما أن نولد حتى تبدأ محاولاتنا في أن نخلق ونبتكر، أن نجعل للمادة حياة. كل لحظة نولد. لهذا جاهر كثيرون أن هدف الحياة الدنيا هو الخلود.

في الأجسام الحيّة الفانية يتصارع هذان التياران:

الصاعد، نحو التركيب، نحو الحياة، نحو الخلود.

الهابط، نحو التحلّل، نحو المادة، نحو الموت.

هذان التياران ينبعان من أغوار الجوهر البدائي. الحياة تفاجئ في البدء، تبدو وكأنّها خارجة على القانون، كأنّها طبيعة مضادة، كأنّها رد فعل على الينابيع المظلمة الخالدة. لكنّنا نشعر في أعماقنا أن الحياة هي الأخرى فوضى وفوران لانهائي للكون، وإلا فمن أين تأتي تلك القوة التي تفوق طاقة البشر؟ تلك القوة التي تقذف

بنا من الغيب إلى الميلاد ثم تشدّ أزر كفاحنا نباتات وحيوانات وبشراً.

هذان التياران كلاهما مقدّس.

واجبنا إذاً أن ندرك الرؤيا التي تستطيع أن تستوعب هذين الاندفاعين الهائلين - الفوضويين واللانهائيين، وتجانسهما، وأن نضبط بهذه الرؤيا فكرنا وسلوكنا.

الواجب الأول:

أُحدِّق في العالم بوضوح وهدوء ثم أقول:

كل هذا الذي أراه وأسمعه وأتذوّقه وأشمّه وألمسه هو من صنع عقلي. الشمس تصعد وتهبط داخل جمجمتي، من أحد صدغيّ تشرق وفي الأخرى تغيب.

في عقلي تلمع النجوم، الأفكار والناس والحيوانات ترعى داخل رأسي الفاني. نحيب وأغنيات تملأ تجاويف أذني اللولبية، فيضطرب الهواء للحظة، ينطفئ العقل فيختفي كل شيء... السموات والأرض.

يهتف العقل "أنا وحدي الموجود".

"في باطني تعمل الناسجات الخمس، ينسجن ثم ينقضن نسيج الزمان والمكان، الفرح والحزن، المادة والروح، كل الأشياء تجري من حولي وكأنّها نهر، تدور مندفعة، الوجوه تنساب كالماء وتصطخب الفوضى، لكنّي أنا العقل أتقدّم بصبر وبسالة، هادئاً وسط الدوّار، ولكي لا أتدحرج نحو الهاوية ألتصق بالدوّار وأترك آثاراً. أُسقِط جسوراً، وأفتح طُرقاً، وأُؤسّس للهاوية.

ببطء وبجهد شاق أتحرَّك بين الظواهر التي أُنجبها. أميّزها بطواعيّة وأخلطها بقوانين ثم أخضِعها لاحتياجاتي العملية الشاقة. أضع أساساً للفوضى، أعطي للفوضى وجهاً هو وجهي.

لا أدري ما إذا كان ثمة جوهر خفي ومتعالٍ يعيش ويتحرّك خلف الظواهر. ولكني لا أتساءل أعتبره لا يعنيني. إنّي أنجب الظواهر بطواعية، أرسم بألوان عديدة حجاباً خيالياً أمام الهاوية. لا تقل لي أزل الحجاب لأرى اللوحة. فالحجاب هو اللوحة نفسها.

أنا عامل الهاوية. أنا المتفرّج على الهاوية. أنا النظرية والممارسة. أنا القانون. خارجي لا يوجد أيُّ شيء على الإطلاق.

عليك أن تدرك وأن تقبل حدود العقل الإنساني بلا محاولات عصيان لا جدوى منها، وعليك ضمن هذه الحدود الصارمة أن تعمل بلا شكوى وبلا توقّف - هذا هو واجبك الأول.

عليك أن تشيِّد ببسالة وقوة، على الفوضى المتحرِّكة (تَقَاةً)[1] العقل شديدة الاستدارة، وشديدة الإضاءة، لكي تدرس وتميّز كل شيء كما يدرس رب الأسرة السنابل ويفرز الحبوب من الروث.

عليك أن تميِّز بوضوح، وتتقبّل بشجاعة هذه الحقائق المرّة ذات الخصوبة والقيمة الإنسانية، والتي تعتبر قطعة من لحم جسدنا:

---

(١) التقاة: قطعة أرض صلبة ومستديرة يدرس عليها القمح بعد حصاده لتفرز الحبوب عن غيرها (المترجم)

بإمكان عقل الإنسان أن يدرك الظواهر فحسب، لكنّه عاجز أبداً عن إدراك الجوهر.

إنه عاجز حتى أن يعقل كل ظواهر المادة، وإنما يستطيع فقط أن يعقل بعض ظواهرها.

وبتحديد أكثر: إنه لا يستطيع حتى أن يعقل ظواهر المادة وإنما فقط يستطيع أن يعقل العلاقات التي تربطها ببعضها البعض.

إن العلاقات التي تربط بين ظواهر المادة ليست مستقلة فعلاً عن الإنسان. إنما هي من صنع البشر أيضاً.

وهي ليست أقوى ما ينجب الإنسان، لكنّها الأكثر مساعدةً له في ضروراته العملية والعقلية.

ضمن هذه الحدود يظلُّ العقل هو السلطان الشرعي الوحيد، وليس ثمة سلطة أُخرى عداه في ربوع مملكته.

أعترفُ بهذه الحدود، أنصاعُ لها بصبر وشجاعة وحب/ وفي المنطقة الواقعة داخل هذه الحدود أطلق العنان لكفاحي وكأنّي حرّ. أطوّع المادة. أجبرها على أن تكون موصلاً جيداً لعقلي. أفرح بالنباتات والحيوانات والناس والآلهة وكأنّهم أبنائي. أشعر بالكون كلّه يتجمّع من فوقي ثم يتبعني وكأنّه جسد.

في لحظات مفاجئة وعصيبة يلمع في داخلي صوت يقول: "هذا كله مجرّد لعبة فاسدة لا غاية لها، بلا بداية وبلا نهاية وبلا معنى"، لكنّي أوصل نفسي سريعاً بعجلة الضرورة، فيبدأ الكون كلّه يدور دورته حولي من جديد.

عليك بالانضباط. إنّه الفضيلة العليا، وبه وحده تتكافأ الرغبة بالقوة، وتثمر محاولة الإنسان.

وبذلك تستطيع بصفاء وشدّة أن تحدّد السلطة المطلقة للعقل على الظواهر، وعجز العقل في ما وراء الظواهر، قبل أن تتقدّم للخلاص وإلّا فلن تجد للخلاص سبيلاً.

الواجب الثاني:

لا أقبل الحدود ولا تسعني الظواهر. إنّي أختنق! فلتعش هذه المعاناة العميقة الشاقة. هذا الواجب الثاني.

العقل يتكيّف، فله القدرة على الصبر ويعجبه اللهو، لكن القلب يتوحَّش ولا يقبل لهو العقل. إنّه يقفز ويصطخب لكي يمزّق شِباك الضرورة.

ما قيمة أن أُهيمن على الأرض والماء والهواء، وأن أنتصر على الزمان والمكان، وأن أدرك بأيّ القوانين تتناغم وتأتي المرّة تلو الأخرى هذه الصورة المنعكسة على المرايا، التي تصعد من صحراء العقل الملتهبة؟

أشتاق إلى شيء واحد هو: أن أدرك ما الذي يختبئ خلف الظواهر. ما هو هذا السرّ الذي ينجبني ثم يقتلني؟ وهل خلف التيار المنساب والمرئي للعالم لم يختبئ حضور ثابت لامرئي؟

إذا كان العقل لا يستطيع وليس من شأنه أن يحاول التقدّم خارج حدود بوّابة الخروج البطولية اليائسة فهل يستطيع القلب؟!

بعيداً... بعيداً... بعيداً في ما وراء الإنسان، أبحث عن

السوط اللامرئي الذي ينهال عليه ويدفعه للكفاح. وفي ما وراء الحيوانات أجهد نفسي لأرى ذلك البدائيّ الذي ينافح صانعاً ومهدّماً، وهو يسكب مرّة أخرى الأقنعة التي لا تحصى لتنطبع على تيار اللحم.

وفي ما وراء الحيوانات أحاول أن أُميّز آثار الخطى الأُولى للّامرئي على الوحل الطيني.

صوت في داخلي يصيح آمراً:

احفر. ماذا ترى؟

بشراً وطيوراً، مياهاً وحجارة.

احفر أيضاً... ماذا ترى؟

أفكاراً... وأحلاماً... بروقاً... وخيالات.

احفر أيضاً. ماذا ترى؟

لا أرى شيئاً! ثمّة ليل عاصف غليظ كالموت، لعلّه الموت.

احفر أيضاً!

آه لا أستيطع أن أعبر شبه الجدار المظلم! أسمع أصواتاً ونحيباً، أسمع حفيف أجنحة آت من الضفة الأُخرى.

لا تبكِ! لا تبكِ! إنها ليست من الضفة الأخرى. كل هذه الأصوات والنحيب وحفيف الأجنحة هي قلبك.

بعيداً عن العقل، وفي الهاوية المقدّسة للقلب أتوازن مرتجفاً.

إحدى قدميَّ تحط على تراب حقيقي، والأخرى تبحث عبر الظلام عن الهاوية.

أستشعر خلفي كل هذا الجوهر المكافح يصارع من خلف الظواهر ليلتحم بقلبي، لكن الجسد يقف حائلاً بيننا ليفرِّقنا، والعقل يقف حائلاً بيننا ليفرِّقنا.

ما هو واجبي؟ واجبي أن أُحطِّم الجسد، أن أتدفَّق وألتحم باللامرئي، أن يصمت العقل لكي أسمع صياح اللامرئي.

أسير على حافة الهاوية وأرتجف. هناك صوتان في داخلي يتهدَّجان، يقول العقل: "لماذا نتوه بحثاً عن المستحيل؟ يجب أن نعترف بحدود الإنسان داخل السور المقدَّس للحواس الخمس".

لكن صوتاً آخر بداخلي ولنسمِّه الحاسة السادسة أو لنسمِّه القلب يقف معترضاً ويصيح:

"لا، لا، لا تعترف أبداً بحدود الإنسان! عليك أن تحطِّم الحدود! أن تنكر ما تراه عيناك! أن تموت وأنت تردِّد لا يوجد موت".

يردّ العقل، عيني صافية وخالية من كل أمل، ترى كل شيء، ترى الحياة لعبة بل مجرّد عرض يقدِّمه ممثلو مسرح جسدي الخمسة.

أتابع العرض بمتعة وغرابة تفوق الوصف ولكنّني لا أملك بساطة القرويّ لكي أصل إلى يقين وأصعد على المسرح مشاركاً في الكوميديا الدامية.

أنا الحاوي صانع المعجزات الذي يجلس ساكناً عند تقاطع طرق الحواس، يرى العالم يولد ثم يغيب. يرى الجموع تتحرّك وتصيح في دروب اللاجدوى المتعدِّدة الألوان

"أيها القلب... أيُّها القلب الفج... اهدأ وانصع".

لكن القلب ينتفض ويصرخ:

"أنا القرويُّ أقفز على المسرح وأتدخّل في مسيرة العالم!".

لا أزن ولا أقيس ولا أتكيّف. أتبع دقاتي العميقة. أسأل وأكرر السؤال طارقاً أبواب الهاوية: من الذي يبذرنا في هذه الأرض دون إذن يُطلب منّا؟ من الذي يقتلعنا من هذه الأرض من دون إذن منّا؟

أنا مخلوقٌ مؤقَّتٌ وضعيف، مصنوع من طين وأحلام لكنّي أدرك أنّ في داخلي تصطخب كلّ قوى الكون.

أريد للحظة واحدة، وقبل أن تحطِّمني هذه القوى، أن أفتح عينيَّ فأراها أمامي. هذا هو هدفي الوحيد في الحياة.

أريد أن أجد مبرراً لكي أستمرّ على قيد الحياة، ولكي أتحمّل المشهد اليومي المرعب للمرض والقبح والظلم والموت.

بدأت من نقطة مظلمة هي الرحم، وأسير نحو نقطة مظلمة أخرى هي القبر. إحدى القوّتين تقذفني من هاوية مظلمة والأخرى تسحقني، بلا انقطاع، في هاوية مظلمة.

أنا لست ذلك المذنب الذي سقوه النبيذ لكي لا يتلوّث

عقله، فأنا أقفز على الممرّ الواقع بين الهاويتين السحيقتين بذهن صاف ومتيقّظ.

أكافح لكي أكون قادراً على هزّ رأسي للرفاق محيياً قبل أن أموت، وأن أمدّ يدي لهم مصافحاً، ولتنحلّ عقدة لساني فألقي عليهم قولاً بليغاً أُحدّثهم فيه عن تصوّري لهذه المسيرة وعن تكهناتي بالاتجاه الذي تسير فيه، وعن مدى حاجتنا جميعاً لضبط إيقاع خطواتنا وقلوبنا على بعضها البعض.

كيف أتوصّل إلى شعار، إلى كلمة سر متفق عليها كما يفعل المقدمون على تنفيذ مؤامرة؟ كيف أتوصّل إلى قول بسيط أقدّمه للرفاق؟

أجل... إنّ هدف هذه الأرض ليست الحياة وليس الإنسان. فلقد عاشت بدونهما وستعيش لاحقاً بدونهما. إنّهما الشرارات المؤقتة لدورانها العنيف.

فلنتّحد ونتماسك بقوة، ولتلتحم قلوبنا ونبدع. وبقدر ما ستستمر هذه الأرض محتفظة بحرارتها، سنكون في مأمن من مفاجآت الزلازل والبراكين والثلوج والشهب. فلنبدع عقلاً وقلباً على هذه الأرض، ولنعط معنىً إنسانياً لكفاح التسامي لما بعد الانساني. هذه المعاناة هي واجبك الثاني.

الواجب الثالث:

العقل يتكيَّف يودّ لو يعبّئُ سجنه، عرشه بإنجازات عظيمة، وأن ينقش على الجدران مآثر بطوليَّة، ويرسم على السلاسل أجنحة الحرية.

القلب لا يتكيَّف. ثمة أيادٍ تطرق أبواب سجنه من الخارج، وأصوات عشق تتسرّب إلى مسامعه عبر الريح، فيستجيب القلب وهو مفعم بالأمل، مفجّراً السلاسل، وفي إحدى توهّجاته تبدو له السلاسل وقد تحوَّلت إلى أجنحة. لكن سرعان ما يسقط القلب مرّة أخرى دامياً. وقد فقد الأمل وبدأ يتملّكه الخوف الكبير.

طوبى لتلك اللحظة...

أُترك وراءك القلب والعقل وتقدّم إلى أمام واخْطُ الخطوة الثالثة.

عليك أن تنجو من البساطة الفجّة للعقل الذي ينظّم ويأمل في السيطرة على الظواهر.

عليك أن تنجو من رعب القلب الذي يبتغي ويأمل العثور على الجوهر.

انتصر على العقبة الأخيرة الأكثر إغراءً: الأمل. هذا هو واجبك الثالث.

نحن نحارب لأنّنا نستمتع بذلك. نغنّي حتى إذا لم نجد أذناً تصغي لغنائنا. نعمل حتى إذا لم نجد ربّ عمل يدفع لنا أجرنا اليومي عند الأصيل. نحن لا نعمل للغير، إذ نحن أرباب العمل. إنّ كروم هذه الأرض ملك لنا. إنّها لحمنا ودمنا. نحن الذين نحفر لها التربة، ونشذب فروعها ونجني عنبها ونعصره، ونشرب النبيذ، ونغنّي ونبكي، وتصعد إلى رؤوسنا أفكار وأحلام.

في أيِّ مواسم دورة حقل الكروم اختار لك الحظ أن تعمل؟ في موسم الحفر أم في موسم جني العنب أم في موسم الاحتفالات؟ إنها جميعاً شيء واحد.

أحفرُ وأبتهجُ بكل دورة. أغنّي رغم عطشي وإرهاقي منتشياً بنبيذ المستقبل.

أحمل الزجاجة المليئة وأعيش ثانية الجهد الذي لحق بجدّي وبجدِّه من قبله، وعرق العمل يتصبّب منساباً على الجمجمة السكرى.

أنا سلَّة مليئة باللحم والعظام والدم والدموع والعرق، بالرغبات والرؤى.

أعدو للحظة في الريح، أتنفّس، يخفق قلبي، يضيء عقلي، وفجأة تنفتح الأرض وأضيع.

داخل سلسلتي الفقريَّة الفانية يصعد ويهبط تياران، وفي أحشائي رجل وامرأة يتعانقان. يتحابان ويتباغضان. يكافحان.

يصيح الرجل متهيِّجاً "أنا المدرار الذي يودُّ أن يمزِّق النسيج، وأن يقفز خارج منسج الضرورة. أنا الذي يريد أن يتجاوز القانون وأن يحطِّم الأجساد وأن ينتصر على الموت. أنا البذرة".

يردّ صوت آخر منطقي وعميق، صوت أُنثويٌّ هادئ وواثق: "أجلس واضعة إحدى قدمي على الأخرى، وأدع جذوري تذهب عميقاً في القبور. أتقبَّل البذرة وأنا ساكنة بلا حراك ثم أرعاها. أنا كُلِّي حليب وضرورة. أتشوّق للرجوع إلى الوراء. للهبوط إلى الحيوان، والهبوط أكثر وأكثر إلى الشجرة، وإلى أعماق القبور والتربة، وألّا أتحرّك إلى الأمام. إنّي أقبض على الأنفاس وأحبسها ولا أدعها تنطلق. أكره الشعلة التي تتصاعد. أنا الرحم".

أصيغ السمع للصوتين فكلاهما لي. أفرح بهما ولا أرفض أيّاً منهما.

قلبي رقصة للحواس الخمس. قلبي رقص مضاد نقيض للحواس الخمس.

قوى لا تحصى، مرئيَّة وخفيَّة، تفرح وتتبعني حين أتقدّم صاعداً بمشقّة عكس التيار العظيم.

قوى لا تحصى، مرئيّة وخفيّة، تهدأ وتسكن حينما أتراجع إلى الوراء، هابطاً عائداً إلى التراب.

ينهمر قلبي. لا أطلب بداية العالم ولا نهايته. أتبع إيقاع قلبي الرهيب وأذهب.

ألقِ التحية على الأشياء كلّها في كلّ لحظة. أرسل نَظَرك بتؤدة وولَه ثم قل، الوداع.

حدِّق في ما حولك، كل هذه الأجساد التي تراها ستتحلَّل. لا يوجد خلاص.

أنظر: يعيشون، يعملون، يحبون، يأملون.

أنظر مرّة أخرى: لا يوجد أيّ شيء!

أجيال من البشر تصعد من التراب ثم تسقط ثانية في التراب.

تتجمّع فضيلة الإنسان ومحاولته، تكبر وتتصاعد حتى السماء.

إلى أين نحن ذاهبون لا تَسَلْ! أصعد وأهبط. لا توجد بداية ولا توجد نهاية.

توجد هذه اللحظة الحاضرة، مليئة بالمرارة ومليئة باللَّذة.

أفرح بها كاملة.

الحياة خير والموت خير، والأرض مستديرة كصدر أنثوي في قبضتيَّ القديرتين.

أمنح نفسي كل شيء، أحب، أتألّم، أكافح. عالمي يمتد لأبعد ممّا يتخيّل العقل.

قلبي سرّ عميق وغامض.

أيّتها النفس، لو تستطيعين، اصعدي على الأمواج الصاخبة واحتوي البحر كلّه بنظرة من عينيك. سيطري على قُوى إدراكك حتى لا تتزعزع وغوصي مرّة أُخرى في عمق البحر وواصلي الكفاح.

جسدنا سفينة تسبح في مياه عميقة زرقاء.

ما هو هدفنا، أن تتحطم سفينتنا!

لأنّ المحيط الأطلسي مليء بالشلالات، فإن الأرض الجديدة توجد فقط في قلب الإنسان. وذات لحظةٍ مفاجئةٍ ستغرق أنت وسفينة العالم، في إحدى الدوّامات الصاخبة بشلالِ الموت.

واجبك أن تبحر بهدوء وشجاعة، وبدون أمل نحو الهاوية، وأن تقول: لا يوجد أيّ شيء! لا يوجد أيّ شيءٌ لا توجد حياة ولا يوجد موت!!

أحدّق في المادة والعقل وهما يتحرّكان، وهما يلتحمان، وهما يتناسلان، وهما يغيبان كأنّهما أطياف من العشق لا وجود حقيقياً لها ثم أقول: هذا ما أريده.

أعرف الآن أنّني لا أطمع في شيء ولا أخاف من شيء. لقد تخلّصت من العقل ومن القلب وصعدت إلى أعلى. أنا حرّ. هذا ما أبتغيه ولا أبتغي شيئاً عداه فلقد كنت أطلب الحريّة.

المسيرة

تفاجئُني صيحةٌ قويةٌ تأتي من داخلي: "النجدة"

من الذي يصيح؟

إجمع قواك وارْهَف السمع. قلب الإنسان ليس إلّا مجرَّد صيحة. التصق بصدرك لكي تسمعها. شخص ما يكافح بداخلك هو الذي يصيح.

إنّ واجبك في كل لحظة، ليلاً ونهاراً، في الفرح وفي الحزن، وفي خضم مشاغل الحياة اليومية، هو أن تميِّز هذه الصيحة، متهدِّجة كانت أم متماسكة، كيفما صدرت عنك، سواء كنت مبتهجاً أم باكياً، فاعلاً أم مفكراً، وأن تكافح لكيّ تحسّ بهذا الذي يصيح وهو يواجه الخطر ونجنِّد أنفسنا لتحريره.

في أقصى حالات فرحنا نسمع بداخلنا أحداً يصيح: "إني أتألّـم، أريد أن أفرّ من فرحك، إنني أتميَّزُ من الغيظ".

في أقصى حالات يأسنا نسمع بداخلنا أحداً يصيح: "لست يائساً. إني أكافح. أقبع فوق رأسك. أطلُّ من جسدك، أنبثق من الأرض، لا تسعني العقول ولا الأسماء ولا الأفعال".

من أكثر فضائلنا أريحية ينبري أحد الناس واقفاً ثم يصيح بيأس:

"ضيّقةٌ هي الفضيلة، إني لا أستطيع أن أتنفّس. الجنّة ضيّقة وصغيرة إنها لا تسعني. إلهكم يبدو كإنسان. أنا لا أريده!".

أسمع الصيحة المتوحشة وأنهض واقفاً، ولأوّل مرّة تأخذ المعاناة الصاعدة في داخلي شكلاً لصوت إنسان حقيقي... تواجهني مباشرة ثم تناديني بكل وضوح باسمي وباسم أبي وباسم سلالتي.

هذه هي اللحظة العظيمة الحاسمة. إنها شعار المسيرة. فلا تبدأ إذا لم تسمع هذه الصرخة وهي تخترق أحشاءك!

إِتبع مرتبتك في المقام الأول وفي المقامين الثاني والثالث من التهيّؤ بصبر وطاعة.

أرهف السمع أثناء نومك وخلال ممارسة الجنس وفي الإبداع، وخلال فعل من أفعالك الطوعية، أو أثناء صمتك صمتاً عميقاً يائساً، فلربما تسمع فجأة هذه الصيحة وتتقدّم إلى أمام.

كان قلبي يهدر حتى تلك اللحظة، يصعد ويهبط مع الكون. لكني حين بلغتني الصيحة انقسمت أحشائي والكون إلى معسكرين.

بداخلي شخص يواجه الخطر. رفع يديه صائحاً يستغيثني: "أنقذني".

بداخلي شخص يتقدّم صاعداً، يسير وهو يصيح: "النجدة!".

أيُّ من الطريقين المقدّسين عليَّ أن أختار؟ وفجأةً أدرك أن حياتي كلّها بل وحياة الكون بأكمله مرتبطة بقراري هذا.

من بين الطريقين أختار الطريق الصاعد. لماذا؟ ليس لأيِّ حجج عقلية أو يقين، فعند تلك اللحظة الحاسمة أستوعب كم هو غير خبير هذا العقل، بل وكلّ القناعات الصغيرة للإنسان.

أختار الطريق الصاعد لأنّ قلبي يدفعني نحو هذا الاتجاه. يناديني قلبي: "إلى الأعلى... إلى الأعلى" فأتبعه بكل ثقة.

أشعر أنّ هذا ما تطالبني به تلك الصيحة البدائيّة الرهيبة. أقفز إلى جانبها وأطابق قدري بها.

بداخلي يكافح شخص ليرفع حملاً ثقيلاً، يراجع حساب الجسد والعقل منتصراً على العادة والكسل والضرورة.

لا أدري من أين يأتي ولا إلى أين يذهب. أتبع خطاه داخل صدري الفاني. أرهف السمع إلى لهاثه وأقشعرّ حين أتحسَّسه.

مَن هو؟ أنصب له أذني. أضع علامات. أستنشق الهواء ثم أصعد إلى أعلى. أبحث في اتجاه الأعالي. ألهث. أبدأ المسيرة السرية الرهيبة.

أ – السلّم الأول: أَنا

أنا لست طيّباً، ولست نقيّاً، ولست مطمئناً. السعادة لا تطاق والشقاء لا يطاق. أنا مليء بهمهمات ذعر وظلام. أتدفّق دموعاً ودماءً داخل زريبة لحمي الساخنة هذه.

أخاف أن أتكلّم. أتزيّن بأجنحة مزيّفة. أصيح وأغنّي وأبكي لكي لا أخنق صيحة قلبي القاسية.

أنا لست الضوء. أنا الليل، لكن شعلة تربض ما بين أحشائي وتأكلني. أنا الليل الذي يأكله الضوء.

أخاطر يائساً مترنّحاً في الظلام. أحاول أن أقفز من نومي، وأن أنتصب واقفاً لبعض الوقت، قدر ما أستطيع.

نَفَسٌ صغير ومتمرّد، يكافح في داخلي يائساً علّه ينتصر على السعادة، وعلى الإرهاق وعلى الموت.

أمرّن جسدي كحصان محارب، أحافظ عليه بسيطاً وقوياً وطيّعاً. إنّـي أقسو عليه وأواسيه، إذ ليس لي حصان سواه.

أحافظ على عقلي يقظاً وصافياً وحادّاً. أثِق في أن يكافح بلا انقطاع هذا النور الذي يلتهم الظلام، إذ ليس ثمّة معمل غيره يستطيع أن يحوِّل الظلام إلى نور.

أحافظ على قلبي متوهِّجاً، شجاعاً، متوتراً. أحسُّ بكل الاضطرابات والتناقضات في قلبي، بمباهج الحياة ومنغّصاتها، لكنّي أكافح من أجل أن أطوِّعها لإيقاع الكون الذي يتصاعد. الصيحة في داخلي تطلق نداءً للتجنيد تصيح: "أنا الصيحة. أنا السيد إلهك! أنا لست ملجأً ولا داراً ولا أهلاً. أنا لست الأب ولا الابن. أنا لست الروح. أنا قائدك! أنت لست خادماً لي ولست لعبة بين كفيَّ. أنت لست صديقي ولست ابني. أنت رفيقي في المعركة. عليك أن تحمي المضايق التي كلَّفتك بحمايتها، وألّا تتركها للأعداء. وواجبك الذي تستطيع أن تؤدِّيه هو أن تكون بطلاً في موقعك. عليك أن تحب المخاطر. "ما هو الشأن الأكثر صعوبة؟"... "هذا ما أطلبه منك!" أيُّ الطرق تسلك؟ الصاعد الوعر... هذا هو طريقي أيضاً فاتبعني!

تعلَّم أن تطيع. وحده الذي يذعن لإيقاع أعلى من إيقاعه يستطيع أن يكون حرّاً.

تعلّم أن تصدر الأوامر. وحده الذي يستطيع أن يأمر يستحق أن يمثّلني على هذه الأرض.

عليك أن تحبّ الواجب، وأن تقول: عليَّ أنا وحدي تقع مسؤولية إنقاذ الأرض. وإذا لم تُنقَذ فأنا المذنب.

عليك أن تحبّ كل شخص بمقدار مساهمته في الكفاح، وألّا تبحث عن أصدقاء وإنما عن رفاق!

عليك أن تكون متوتّراً وممتعضاً وغير متكيِّف أبداً. وحين تتملكك إحدى العادات عليك أن تحطّمها. إنّ أكبر الأخطاء هو الاستسلام للرضا.

إلى أين نحن ذاهبون؟ هل سننتصر أبداً؟ في أيِّ إتجاه تنحو كل هذه المعركة؟

إلزم الصمت! فالمحاربون لا يتساءلون أبداً.

أنحني وأُرهف السمع إلى هذه الصيحة القتالية التي تنبعث من أحشائي. أبدأ في تصوّر وجه القائد. أتحقّق من صوته ثم أنصاع إلى أوامره الشاقة بفرح ورهبة.

أجل... أجل... أنا لا شيء... أنا مجرّد نعومة فسفورية على المروج المبتلّة. دودة تعسة تطلق صفيراً وتحبّ، تصيح وتتكلّم لساعة أو لساعتين عن أجنحة ما، وبعد ذلك تغلق فمها بالتراب. هذه هي الإجابة الوحيدة التي تقدّمها القوى المظلمة.

لكنّ الصيحة العظمى الخالدة بداخلي تنادي قائلة: ما الذي تريده ولا تستطيع أن تبلغه؟ أنا واثق بأنّني جزء من الكون المرئي واللامرئي. نحن شيءٌ واحد... القوى التي تعمل بداخلي، والقوى الأخرى التي تدفعني لأعيش، والقوى التي تدفعني لأموت، هي بالتأكيد، قواك أنت أيضاً.

أنا لست جسداً معلّقاً لا جذور له في العالم. أنا ترابٌ من ترابه ونَفَسٌ من أنفاسه.

لا أخاف وحدي، ولا آمل وحدي، ولا أصيح وحدي. قطاع كبير وقوى هائلة من الكون تخاف وتأمل وتصيح معي.

أنا جسر شيِّد بغير إتقان. أحدهم يعبرني فأتحطّم وراءه. أحد المناضلين يخترقني، يأكل جسدي وعقلي لكي أفتح له الطريق، ولكي ينجو مني. إنّه هو الذي يصيح وليس أنا.

ب – السلُّم الثاني: السلالة

الصيحة لا تصدر عنك. لست أنت الذي يتكلّم. أسلافٌ بأعداد لا تحصى هم الذين ينطقون عبر فمك. أنت لا تعبِّر عن رغبتك الشخصية وإنما تعبِّر من خلال قلبك عن رغبات أعداد لا تحصى.

إنّ موتاك لم يعودوا يقبعون في التراب، وإنما صاروا طيوراً وأشجاراً وهواء. إنك تجلس بينهم وتستطعم بلحمهم، وتستنشق أنفاسهم. لقد صاروا أفكاراً وأحاسيس وها هم يحدّدون مشيئتك وسلوكك.

إنّ أجيال المستقبل لا تتحرّك في الزمن اللايقيني بعيداً عنك. إنّهم يعيشون وينشطون وتتملّكهم الرغبات داخل قلبك وكليتيك.

واجبك الأوّل وأنت توسّع أناك في هذه اللحظة المؤقتة التي تسير فيها على الأرض، هو أن تُفلح في أن تعيش المسيرة الخالدة، أن تحيا المرئي واللامرئي من ذاتك.

أنت لست فرداً. إنّك وحدة من جيش كامل. لحظة واحدة تحت الشمس تضيء وجهاً من وجوهك وما أن تضيئه حتى تتحوّل عنه لتضيء وجهاً آخر، أكثر شباباً منه.

سلالتك هي الجسد الأكبر، فهي الماضي والحاضر والمستقبل. أنت تعبيرٌ لحظويٌّ، أما عشيرتك فإنها الوجه. أنت الظلّ وعشيرتك اللحم.

أنت لست حراً. جموع من الأيدي تقبض على يديك وتتحرَّك. حين تغضب يرغي ويزبد أحد أسلافك عبر فمك، وحين تحب يتلعثم أحد سكان الكهوف، وعندما تخلد إلى النوم تتفتّح القبور ويمتلئ رأسك بأشباح الموتى.

رأسك ترعة من الدماء تتجمّع على ضفافها قطعان وقطعان من ظلال الموتى، ويشربونك لكي يحيوا.

يصيح الموتى بداخلك: "لا تمت كي لا نموت".

"لم نتمكّن من الابتهاج بالنساء اللاتي رغبناهن، فلتتمكن أنت ولتضاجعهن. لم نتمكّن من تحويل أفكارنا إلى أعمال. حوّلها أنت إلى أعمال. لم نستطع القبض على ملامح وجه آمالنا لنتحقّق منها، فلتتحقّق أنت منها، ولتكمل عملنا!

أكمل عملنا! ندخل جسدك ليل نهار، ونخرج منه صائحين. نحن لم نذهب، لم نبارح جسدك، و لم نهبط إلى الأرض. من داخل أحشائك نواصل الكفاح. خلّصنا"!.

لا يكفي أن تسمع في داخلك صخب الأجداد. لا يكفي أن تشعر بهم يتدافعون أمام عتبة عقلك.

إنهم جميعاً يتدافعون لكي يتشبّثوا بحرارة عقلك، ولكي يبلغوا مرّة أخرى ضوء الأيام.

لكن عليك أن تحدّد أياً من الأسلاف سيتحطّم خلف جحيم دمائك وأيهم سيصعد مرّة أخرى إلى الضوء والتراب.

لا تحزن من أجلهم! اجلس ساهراً في الممر الأسفل لقلبك ثم اختر. قل: "هذا الظل متواضع ومظلم كأنّه حيوان، فليذهب! وهذا صامت ومتوهج، إنه أكثر حيوية مني، فليشرب دمائي كلها".

عليك أن تضيء دماء الأسلاف المظلمة. عليك أن تشكّل من أصواتهم خطاباً. نظف مشيئتهم، وسّع جبهتهم الضيّقة الصلبة. هذا هو واجبك الثاني.

ولأنّك لست عبداً، لذلك فَحَالَ ولادتك وُلِد معك احتمال جديد، واندفاعة حرّة تهزّ الظلمات العميقة لقلب عشيرتك.

وسواء أردت أم لم ترد، فإنك تحضر معك إيقاعاً جديداً، ورغبة جديدة، وفكرة جديدة، وحزناً جديداً. إنك توسع جسدك الأبوي أردت أم لم ترد.

عليك واجبٌ كبير، فأنت لا تتحكّم في وجودك الضئيل الصغير. إنك قطعة نرد حيثما يُلْعَبُ، ولو للحظة قَدَر شعبك.

كلّ فعل لك يتردّد صداه في آلاف الأقدار، وحيثما تسير وتكتشف وتقيم مأواك فإن نهر الأجداد سيجري وينفذ إليك.

حين تخاف فإن خوفك سيفصم عُرَى أجداد لا يُحْصَون، ويحطّ من قيمة أرواح لا تحصى من قبلك ومن بعدك، وحين تقوم بعمل شجاع فإن سلالتك بأكملها ستهبّ وتستبسل.

"أنا لست فرداً واحداً... أنا لست فرداً واحداً"، يجب أن تحرقك هذه الرؤيا في كل لحظة.

أنت لست جسداً ضعيفاً ويائساً، فخلف قناعك الترابي المتحرِّك يقبع وجه منذ آلاف السنين. إن عواطفك وأفكارك أكثر قدماً من قلبك ومن عقلك.

جسدك المرئي هو الرجال والنساء والصبيان الذين يعيشون خصوصية عشيرتك.

أسلافك وأحفادك الذين لم يولدوا بعد هم جسدك اللامرئي.

وحده الذي يتخلّص من جحيم ذاته، هو الذي يشعر بالجوع حين يرى أحد أبناء جنسه يتضوَّر جوعاً، ويقفز فرحاً حين يرى امرأة ورجلاً من عشيرته يتبادلان القبل.

كلّ هؤلاء هم أعضاء جسدك المرئي العظيم. إنك تتألم وتفرح متبعثراً حتى نهاية الأرض في آلاف الأجساد التي لها صلة قرابة بك بالدم.

كافح من أجل جسدك الأكبر كما تكافح من أجل جسدك الأصغر. كافح من أجل أن تكون كل أجسادك قوية وبسيطة وكاملة، وأن يضاء عقلها وأن ينبض قلبها متوهِّجاً وباسلاً ومتوتراً.

كيف تستطيع أن تكون قوياً، ومتوهجاً، وشجاعاً، إذا لم تتخلّل هذه الفضائل جسدك الأكبر كلّه؟ كيف تستطيع أن تنجو إذا لم ينجُ دمك كلّه. إذا ضا ع أحد أبناء عرقك فإنّه يدفعك معه في ضياعه... أحد أعضاء جسدك يتلف.

عليك أن تعيش هذه الهوية بعمق، ليس كفكرة مجرَّدة وإنما كلحم ودم.

أنت صفقة واحدة في شجرة عِرْقِك الكبرى. عليك أن تشعر بالتّراب وهو يتصاعد من الجذور العميقة ثم يتوزّع في الفروع والصفق.

ما هو هدفك؟ أن تكافح لكي تقبض على الفرع بقوّة. وسواء أكنت صفقة أم زهرة أم ثمرة، يجب أن تتحرَّك، وتتجدَّد، وتتنفّس الشجرة كلها من خلالك.

إن واجبك وأنت تقدِّم خدمتك التطوعيّة لبني جنسك هو أن تشعر في داخلك بكل الأسلاف. واجبك الثاني هو أن تضيء انطلاقتهم وأن تواصل عملهم. واجبك الثالث هو أن تنقل إلى ابنك الواجب الأكبر وهو أن يتجاوزك.

المعاناة تشتد داخلك، شخص يكافح لكي يخرج، ولكي ينفصل من جسدك ولكي ينجو منك.

بذرة في كليتك، بذرة في عقلك، تريد أن تفارقك بلا عودة، إذ لم تعد أحشاؤك تستوعبها، إنها تكافح في سبيل الحرية.

"يا أبت... قلبك لا يسعني، أكاد أتحطم، أُريد أن أخرج.

يا أبت إني أكره جسدك، وأشعر بالخجل لإلتصاقي بك. أُريد أن أخرج!

لقد تحوّلتَ إلى حصان كسول. إن أرجلك عاجزة عن اللحاق بدقات قلبي. إنّي على عجل... سأترجَّلُ، سأصعد على جسدٍ آخر، وسأتركك في الطريق ورائي".

لكنّك أيّها الأب تفرح وأنت تسمع صوت ابنك وهو يعلو فتقول "كل شيء لابني. كل شيء له. أنا القرد وهو الإنسان. أنا الإنسان وهو ابن الإنسان.

قوّة ما بداخلك، قوّة أعلى منكم تمر ممزَّقة جسدك ثم تناديك:

"قامر بالرهان واليقيني، قامر به من أجل المستقبل والمجهول. لا تأخذ معك شيئاً من أجل الآتي. إني أحب الخطر، ربما تضيع، وربما تنجو، لا تسل، ضع العالم كلّه وفي كل اللحظات بين يدي الخطر. أنا بذرة ذلك الذي لم يولد بعد، آكل أحشاء سلالتك وأصيح!".

ج - السلّم الثالث: الإنسانية

أنت لا تتكلّم وحدك، ولا تتكلّم سلالتك وحدها من خلالك، ففي داخلك تصطخب وتتصايح أجناس لا تُحصى من البشر - بيض وصفر وسود.

تحرّر من السلالة أيضاً. جاهد لكي تحسّ بالإنسان المكافح في كل مكان. أنظر كيف تميّز عن الحيوان، وكيف يكافح لينتصب واقفاً، ولينظّم الصيحات العشوائية، وليحمي الشعلة متّقدة، وليحافظ على العقل بين عظام رأسه.

فلتملأك الرحمة على ذلك المخلوق الذي تنصّل عن القرد ذات صباح عارياً بلا حماية، وبلا قرون وبلا أسنان، لا يحمل سوى نار مشتعلة داخل رأسه الرخو.

إنّه لا يدري من أين أتى، وإلى أين سائر، لكنّه يريد عبر الحب والعمل والقتل أن يسود على الأرض.

حدّق في البشر. إحزن من أجلهم. تأمّل نفسك بين الناس، واحزن من أجلها. نحن نتحسّس بعضنا البعض في عتمة الحياة

المظلمة. نبحث، ونسأل، ونرهف السمع، ثم ننادي: "النجدة!"، نعدو، ونعرف أننا نعدو نحو الموت، لكنّنا لا نتوقّف، بل نواصل العدو.

نعدو ونحن نحمل معنا مصباحاً يضيء وجهنا ولحظتنا. ومن دون إبطاء نسلّم المصباح إلى ابننا وحالاً ينطفئ نورنا ونهبط إلى العالم السفلي.

الأم تنظر إلى الأمام نحو بنتها، والبنت تنظر إلى الأمام أيضاً، تنظر إلى أبعد من جسد زوجها، إلى ابنها، أنظر كيف يسير اللامرئي على هذه الأرض.

كلّنا ننظر إلى أمام بلا رحمة، مدفوعين من الخلف بقوى هائلة وغامضة لا تخطئ.

قِف على جسدك الترابي المؤقت وانظر وراءك صوب القرون الماضية، ماذا ترى؟

حيوانات كلّها شَعر ودماء تصعد من الطين متمرّدة.

حيوانات كلّها شَعر ودماء تهبط من قمم الجبال متمرّدة.

الجيشان يلتحمان متصايحين، كالتحام رجل بامرأة، ثم يصيران كتلة من الدماء... عقل وطين.

حدِّق... شعوب تصعد كما يصعد العشب من التراب، ثم تسقط ثانية إلى التراب سماداً خصباً لبذور المستقبل، فتسمن الأرض بالرماد والدماء وبعقول البشر.

أعدادٌ لا تُحصى من البشر يضيعون في منتصف الطريق... يولدون ثم يموتون عاقرين. فجأة تنفتح هاويات في الظلام، وتتحطّم شعوب. وعبر زوبعة همجيَّة تأتي أوامر بعدم الصمود فيجفل القطيع البشري ويتبعثر.

وفجأة نحسّ من تحتنا ومن حولنا وداخل هاوية قلبنا بالقوى العمياء العديمة القلب والعقل، التي لا تشبع.

نبحر إلى عرض البحر الصاخب، فنحسّ بها في برق أصفر، نودع ثروتنا وأبناءنا وآلهتنا كالبيضة داخل قشرتها.

القرون أمواج مظلمة وسميكة، دماءٌ تعلو وتهبط، وكلّ لحظة تأخذ شكل هاوية تنفتح.

حدِّق في عرض البحر المظلم وأنت ساكن. حدِّق في الهاوية كلّ لحظة وجهاً لوجه من دون خيال أو خجل أو خوف. لكن هذا لا يكفي. عليك أن تتقدّم خطوة أخرى:

كافح من أجل أن تعطي معنى لصراعات الإنسان المتصلة. مرّن قلبك كي يسيطر قدر استطاعته على حيّز أكبر من ساحة المعركة.

عُد القهقرى لتُحَلِّق على قرن واحد من مسيرة الإنسان، ثمّ على قرنين، ثمّ على ثلاثة، ثمّ على عشرة قرون... ثمّ على أكثر ما تستطيع.

مرّن عينيك على مشاهدة شعوب بأكملها تتحرّك على حقب زمنيّة كبيرة.

استغرق في هذه الرؤيا بصبر وبحب ومن دون أدنى غرض حتى يتنفَّس العالم بداخلك شيئاً فشيئاً، وحتى يتوهّج المتصارعون ويلتحموا في قلبك، حتى يتعارف الأخوة.

إنّ القلب يؤالف كل ما يقسمه العقل، إنه يتجاوز ساحة الضرورة ويحوِّل الصراع إلى حب.

حافظ على توازنك وأنت على الهاوية الجائعة، وكافح لكي تؤسِّس الرؤيا. افتح بوابة الغموض التحتيَّة المتعدِّدة الألوان، حيث النجوم والبحار والبشر والأفكار. أعطِ شكلاً لما لا شكل له. للّاعقلانيّة المطلقة.

اشحن قلبك بكل أنواع الرعب، أعد تركيب كل التفاصيل. إنَّ دورة الخلاص واحدة وعليك أن تكملها!

ما معنى السعادة؟

هو أن تعيش كل أنواع التعاسة.

ما معنى الضوء؟

أن ترى بعين غير معتمة كل الظلمات.

نحن حرف بسيط، مقطع واحد، كلمة واحدة من الأوديسا العظيمة.

نحن مستغرقون في أغنية عظيمة تلمع كما تلمع الأعشاب البحرية طوال فترة استكانتها في الأعماق.

ما هو واجبنا؟

أن نرفع رؤوسنا عن النص للحظة، بقدر ما تحتمل أحشاؤنا، ونتنفّس الأغنية البعيدة عابرة المحيطات.

علينا أن نلتحم في أتون المغامرات، علينا أن نعطي لرحلتنا معنى، وأن نكافح من دون انقطاع مع البشر، ومع الآلهة، ومع الحيوانات، وأن نمسح بصبر وتؤدة على قوى إدراكنا، دهناً عظمياً من دهون عظامنا. من إيثاكي.

ومثل جزيرة تصعد من العدم، سيصعد عمل الإنسان ببطءٍ وبِكَدٍّ شديدين.

وفي هذه الحراثة الدائمة ستعمل الأجيال وستحب وستأمل وستغنّي.

أجيال جديدة من البشر يطأون جثث الأجداد ويواصلون العمل فوق الهاوية، من أجل أن يروّضوا السرّ الرهيب... كيف؟ سيقومون بذلك وهم يزرعون حقلاً، أو يقبِّلون امرأة، أو يتفحصّون حجراً أو حيواناً أو فكرةً.

تأتي زلازل فتهتزّ الجزيرة. يتحطّم أحد أطرافها بينما يصعد طرف آخر تحت تأثير أمواج الأعماق.

إن العقل هو أحد العمال البحريين وعليه أن يردم الهاوية.

من كل هذه الأجيال، ومن كل هذه التعاسات والأفراح وحالات العشق والحروب والأفكار ينبعث صوت هادئ وصاف. إنه هادئ وصافٍ لأنه يحتوي على كل خطايا ومخاوف الإنسانَ المكافح الذي يتجاوزها ويصعد.

من بين كل هذه المادة الإنسانية يصعد كائنٌ ما بالأيدي وبالأقدام مختنقاً بالدموع والدماء وهو يجاهد لكي ينجو. ممّ يريد النجاة؟ يريد أن ينجو من الجسد الذي يحيطه، ومن الشعب الذي يتشبث به، ومن لحم الإنسان وعقله وقلبه.

أيها السيّد. من أنت؟ إنك تنتصب أمامي وكأنك من قبيلة الإنسان.

الحصان البحري الأسطوري بيدين تمتدان إلى السماء وقدمين مثبتتين في الطين.

أنا ذلك الذي يتقدّم أبداً.

لماذا تتقدّم؟ إنك تتعب وتكافح. تناضل لكي تتنصّل عن الإنسان... تتنصّل عن الإنسان والحيوان. أُناشدك ألّا تتركني.

أناضل وأصعد لكي لا أغرق. أبسط يديَّ وأتشبَّثُ بكل الأجساد الحارة. أنتصب فوق عقلي ورأسي لكي أتنفّس. في كل مكان أغرق ولا مكان يسعني.

أيُّها السيّد. لماذا ترتجف؟

أشعر بالخوف، فالطريق الصاعد لا نهاية له. رأسي شعلة تحاول أبداً أن تتنصّل عن الجسد، لكن روح الليل تهبّ دائماً وتطفئني.

إنّ كفاحي كلّه يتعرّض للخطر بين لحظة وأخرى. إنّ كفاحي كلّه يتعرّض للخطر في كافة الأجساد. أخطو وأسير داخل اللحم كالسائر في الليل وأنادي: "النجدة"!.

د – السلّم الرابع: الأرض

أنت لا تصيح، وسلالتك لا تنادي عبر صدرك الفاني... وأجناس البشر من بيض وصفر وسود لا يصيحون وحدهم في جوانح قلبك. إنّ الأرض كلّها، بمياهها وأشجارها، بحيواناتها وبشرها، وبآلهتها تصيح في صدرك.

إنّ الأرض تنهض على عقلك فتشاهد للمرّة الأُولى، جسدها كاملاً.. تقشعرُّ.

إنّها حيوان يأكل ويتوالد ويتحرَّك ويتذكَّر. تجوع الأرض فتأكل بنيها، نباتات وحيوانات وبشراً وأفكاراً... تطحنهم داخل فكّيها المظلمين، وتمرِّرهم عبر جسدها ثم تدلقهم على التراب.

تتذكّر وتستعيد ما أصابها من قبل، وداخل قلبي تتفتّح ذاكرتها وتسود على الوقت.

ليس القلب هو الذي يقفز وينبض داخل الدم، وإنما الأرض بأكملها تقفز وتنبض، وهي تلتفت وراءها لترى مرّة أخرى صعودها الرهيب على الهاوية.

أتذكّر صحراء كاملة من مادة فسفوريَّة مشتعلة. أعبر وقتاً

فوضوياً لا يحصى وحيداً يائساً وصائحاً في البريّة.

شيئاً فشيئاً تتضاءل الشعلة، يترطّب رحم المادة ويحيا الحجر، تتفتَّح وتصعد مرتجفة في الهواء ورقة صغيرة خضراء، تتشبّث بالتراب وتتماسك، ترفع رأسها ويديها وتقبض بشدَّة على الهواء والماء والضوء وتحلب الكون.

تحلب الكون وتحاول أن تمرّره عبر جسدها الرقيق كالخيط لتجعله زهرة فثمرة فبذرة، ولتجعله خالداً.

يقشعرّ البحر وينشقّ إلى قسمين. تصعد من قراره المكين دودة قلقة عمياء.

لقد انهزمت الوطأة، ودُفع الغطاء الحجريُّ للموت.

الأشجار والحيوانات تتصدَّر القيادة، ممتلئة بالجنس والجوع.

أُحدِّق في الأرض بعقلها الطيني وأقشعرّ وأنا أُواجه الخطر مرّة أخرى.

كان يمكن أن أغرق، وأن أضيع في الجذور التي تشرب الطمي بسعادة.

كان يمكن أن أتحطّم داخل جلد الحيوان الضخم هذا، أو أترنّح إلى الأبد داخل دماغ الأسلاف القدامى المظلم والدامي.

لكنِّي نجوتُ. عبرت النباتات ذات اللِّحاء السميك. عبرتُ الأسماك والطيور والوحوش، وصرت إنساناً.

لقد صرتُ إنساناً والآن أُكافح لكي أتركه خلفي!

"لا شيء يسعني. لا شيء يسعني. أريد أن أنعتق".

هذه الصرخة ظلّت لدهور طويلة تسحق وتثمر داخل أحشاء العالم. تقفز من جسد لجسد، ومن جيل لجيل، ومن نوع لنوع. وفي كل مرَّة تصير أكثر قدرة على التهام اللحوم، وأكثر قوّة. كل الآباء يصيحون "أريد أن أنجب إبناً يتفوّقني"!

في اللحظات الرهيبة التي تمرّ بها هذه الصرخة عبر أجسادنا نحسّ بقوّة تعود إلى ما قبل ظهور الإنسان، لا تعرف الرحمة، تدفعنا. نحسّ من خلفنا بفيضان طيني مليء بالدماء والدموع والعرق، وبأصوات الفرح والنشوة والموت.

ريح عشقيَّة تهب على الأرض. الدوّار يصيب الأحياء جميعاً فتتلاحم في البحار والكهوف والهواء وتحت التراب، وتتناقل من جسد إلى آخر نبأ عظيماً ومبهماً.

والآن فقط، نحن نستشعر الخطر من خلفنا، نبدأ بغير وضوح التكهّن بمعنى الكفاح، لماذا كانت الحيوانات تولد ثم تموت، ومن قبلها النباتات، ومن قبل كل هذا وذاك قوى الاحتياطي اللاعضويَّة.

مواساتنا وعرفاننا بالجميل وتقديرنا لرفاقنا القدامى في معركتهم. لقد عملوا وأحبّوا وماتوا لكي يفتحوا لنا الطريق لنعبر عليه.

نحن مثلهم، داخل الشهوة نفسها، في اللهفة وفي البلبلة. نعمل لشخص آخر سيتقدّم خطوة إلى الأمام مع كلّ فعل شجاع نقوم به.

إنّ كفاحنا سيكون له هو الآخر أيضاً، هدفٌ أعلى، إذ سيأتي من بعدنا من سيستخدم جهودنا وتعاستنا وجرائمنا ويقدّسها.

إنّ كفاحنا قفزة، نَفَسٌ يتطاير ويصطخب، يحوّل المادة إلى ثمر، يمرُّ بالحيوانات خالقاً الإنسان، ومتشبثاً بما فوقه كصقر خاطف مزمجر.

لقد أتى دورنا! إنّه يعمل فينا عمله. يُصَنِّعُ بداخلنا المادة فيحوّلها إلى روح. يطأُ عقولنا، يقفز واثقاً على البذرة ويصارع، مخلِّفا جسدنا وراءه لكي ينعتق.

كأنّ هذه الحياة مشهد مصيدة خالدة، لزوج غير مرئي يطارد الخلود من جسدٍ إلى جسد، يطارد الزوجة التي لا يمكن ترويضها. ونحن، كلّ المدعوِّين لحضور حفل مراسم الزواج، نباتات وحيوانات وبشر، نقفز مرتجفين أمام بيت الزوجيَّة، وكلّ فرد منّا يحمل برهبة رموز الزواج المقدَّسة. البعض يحمل الذكر، والبعض الآخر يحمل الرحم.

الرؤيا

بدأتَ حين سمعتَ الصيحة. عبرت من معركة إلى أُخرى بكل أنواع التدريبات العسكرية للإنسان المحارب.

حاربت داخل الخيمة الصغيرة لجسدك، لكنّها بدت لك ساحة ضيِّقة، فاختنقت ثم انسكبت لكي تنعتق منها.

عسكرت عند سلالتك. امتلأت أيادٍ وقلوباً.

صعدت مع دمك إلى الأسلاف ذوي الرهبة، وتحرَّكتَ مع الموتى والأحياء، ومع الذين لم يولدوا بعد، لكي تحارب.

وفي إحدى المرَّات تحرّكت كل الأجناس معك. إنتظم الجيش الإنساني خلفك، واصطخبت كل الأرض وكأنّها معسكر.

وهكذا صعدت، وعلى القمّة الشاهقة تفرَّع كلّ مخطط المعركة إلى تلافيف عقلك، وامتزجت كل النزاعات العسكريَّة داخل معسكر قلبك الغامض.

وفي الخلف انتظمت الحيوانات والنباتات مثل خيوط الامدادات لجيوش الإنسان الأماميَّة المتصارعة.

والآن ها هي الأرض كلّها تتشبّث بك وتصير جسداً لك، وتصيح وسط الهاوية.

كيف أُحاصر هذه الرؤيا الرهيبة بالكلمات؟

أنحني على الهاوية وأرهف السمع، يتقدَّم أحدهم وهو يلهث، على الطريق الصاعد الخطير والغامض، يبذل جهده، يكافح بإصرار ليصعد، لكنَّه يصطدم بالعوائق في طريق تقدُّمه. أحدهم يهبط مسرعاً على طريق سرِّي، منحدر ومعبَّد.

يختلط النَفَس بالتيار الغليظ الهابط إلى أسفل، ويسير سيراً حلزونيّاً، وفي لحظة تمتد لأكثر ما تتحمّله أيّ حياة، تتوازن الرغبتان المتعاكستان.

هكذا تُولد الأجساد، هكذا يُخلق العالم، وتتوازن القوّتان المتصارعتان داخل الأحياء.

وذات لحظة يلتفُّ بالواحد الذي يصعد، جسدٌ محبوبٌ، جسده هو، فيعيقه في حركة صعوده، لكنّه ينعتق سريعاً، ينعتق بالعشق، وبالموت، ثم يواصل المسيرة.

يطأ النباتات ويعطيها شكلاً ويعبؤها، يعسكر بكامل عتاده، ماذا يعني "بكامل عتاده؟" يعني أنّه مزودٌ بالأشواق، وبالقوة اللتين تمكّنانه من الانعتاق.

يحاول الوقوف على قدميه. يتنفَّس بجهد لكنّه يشعر بالاختناق. يترك على النبات ما يستطيع تركه من الثِقَلِ والتوجُّس

والسكون، يتخفَّف ويقفز بكامل هيئته، مرّة أخرى، أبعد وأعلى ممّا كان، خالقاً الحيوانات، ثم يعسكر بكامل هيئته في كليتيها. "بكامل هيئته" هنا تعني مرّة أخرى: مزوّدٌ بالأشواق والقوّة اللتين تمكّنانه من الانعتاق.

إنّ الأجساد تتنفّس، تستطعم قواها وتستجمعها، وفي كلّ لحظة عشق تتحطّم، تستهلك كلّ شيء وتستفرغ لكي تترك روحها لابنها. أيّ روح؟ روح الاندفاع إلى أعلى! تتطهّر بين أجساد الحيوانات ببطءٍ وشدّة، ثم تترك عليها قدر ما تستطيع من المعاناة والضعف والظلام.

تنهض مرّة أخرى وهي أخفّ مما كانت عليه، ثم تقفز محاولة الانعتاق. إنّ هذه الاندفاعة نحو الحريّة تخلق ببطءٍ وعبر الجهاد مع المادة – رأس الإنسان.

والآن نحسّ به، ونحن مرتعبين، يجاهد مرَّة أخرى لكي يتعدَّانا ويقذفنا خلفه مع النباتات والحيوانات، ليقفز بعيداً. لقد أتت اللحظة وسط مشاعر الفرح والحرقة الهائلين، لننضمّ نحن أيضاً، نحن الطلائع، إلى قوى الاحتياطي والإمدادات.

خلف تيار جسدي وعقلي، وخلف تيار سلالتي والبشر أجمعين، وخلف تيار الحيوانات والنباتات، أرى وأنا أرتجف ذلك اللامرئي يطأ كل المرئيات ويصعد. وتحت وطأة قدمه الثقيلة أسمع كلّ الأحياء وهي تتحطّم.

وجهه عابس، وجهه صامت ومظلم، بعيد عن الفرح

والحزن، بعيد عن الأمل. أرتجف. هل أنت إلهي. جسدك مليء بالذاكرة، كمن قضى سنوات عديدة في السجن. إنّك تزيّن يديك وصدرك بأشجار غريبة، وبوحوش يكسوها الشعر، وبمغامرات دامية وصرخات. أيُّها السيد. أيُّها السيد: إنّك ترسل أصواتاً كالحيوان. قدماك مضرجتان بالدماء والطين، وفكّاك الثقيلتان تهرسان كحجر الطاحون.

تُمسك بالأشجار وبالحيوانات، تطأ الإنسان وتصيح، تصعد المنحدر اللانهائي المظلم للموت وأنت ترتجف، إلى أين تذهب؟ يتزايد الألم ويتزايد النور والظلام. تبكي، تمسك بما هو فوقي، تستطعم دمي، تتشجَّع وتركل قلبي، أحملك في صدري. أخاف منك وأعطف عليك.

كأنّنا وارينا شخصاً ما التراب بعد أن تيقّنا من موته، لكنّا الآن نسمعه وهو ينادي: النجدة! ثم يرفع حجارة القبر بمعاناة تفوق طاقة أجسادنا وأرواحنا، منتصباً نحو آفاق أكثر علوّاً، مُتَنَفِساً بحريَّة.

إنّ حجارة القبر الثقيلة التي يرفعها تشمل كلّ قول، وكلّ فعل، وكلّ فكرة. إنّ جسدي وكل العالم الذي أتأمّله بسمائه وأرضه هي الأخرى حجارة القبر، والإله يجاهد كي يرفعها.

تصيح الأشجار والحيوانات والنجوم: "إننا نضيع". يدان كبيرتان ترفعهما كلّ المخلوقات نحو السماء طلباً للنجدة.

يبدو الإله بركبتين معقودتين تحت ذقنه، ويدين مبسوطتين

نحو الضوء، وقدمين ملتصقتين بظهره، وكأنّه لفَّة خيط تتسلَّل إلى كلّ أعضاء الجسد.

حين أفتح ثمرةً أعرف أن البذرة تتعرَّى في داخلي مثلها. وحين أتحدّث مع البشر أُميِّز شيئاً كهذا يحدث داخل عتمة عقولهم الداكنة.

يجاهد الإله بكلّ شيء. بأيدٍ مشدودة نحو الضوء... أي ضوء؟ خارج وفوق كلّ شيء.

ليس الألم وحده هو جوهر إلهنا، ولا الأمل في حياة مستقبليّة، أو في حياتنا الأرضيّة هذه، ولا الفرح أو الانتصار. إنّ أي ديانة ترفع من قدْر وجه واحد من هذه الوجوه الأساسيّة للإله عن طريق العبادة تضيِّق من سعة قلبنا وعقلنا.

إنّ جوهر إلهنا هو الكفاح، الذي ينبسط ويعمل فيه بلا انقطاع الألم والفرح والأمل.

إنّ عمليَّة الصعود، والمعركة ضد التيار المعاكس يولِّدان الألم، لكنّ الألم ليس سلطاناً مطلقاً، فكلّ انتصار، وكلّ توازن مؤقّت على طريق الصعود، يملأُ بالفرح كلّ المخلوقات التي تتنفّس، وتستطعم، وتعشق، وتنجب.

لكنّ الأمل ينبعث على الدوام من أعماق الفرح والألم، فننعتق من الألم ونوسِّع رقعة الفرح، ويبدأ الصعود الأليم من جديد، ويولد الفرح من جديد، ويقفز مرَّة أخرى أمل جديد.

فالدورة لا تنغلق أبداً، إذ هي ليست مجرّد دورة، وإنما دائرة حلزونيّة متصاعدة أبداً، توسّع وتبسط وتطوي كفاحها الثلاثي الأبعاد، الذي يحتوي الألم والفرح والأمل.

ما هو هدف هذا الكفاح؟ يتساءل العقل البشري المسكين والمصلحي المرّة تلو الأخرى، ناسياً أن النَفَس العظيم لا يعمل ضمن زمان ومكان إنسانيين، كما لا يعمل ضمن سببيّة إنسانية.

إن النَفَس العظيم أكبر من الأسئلة البشريَّة، وله اندفاعات كونيَّة هائلة يتصوّرها عقلنا الضئيل تناقضات، لكنّها تتآخى داخل جوهر الأُلوهيَّة، وتحارب مجتمعة كرفاق سلاح أوفياء.

يتوزّع النَفَس الأساسي في كل الاتجاهات، يندفع ويحارب، يفشل وينجح، وهو يمارس نشاطه. إنّه عجلة الريح.

ما هي تلك الاندفاعة من كل اندفاعات الإله، التي يستطيع الإنسان أن يدركها؟

إنّها الاندفاعة التالية وحدها، أن نميِّز خطاً أحمر على الأرض. أن نميِّز خطاً أحمر ودموياً يتصاعد من المادة إلى النباتات، ومن النباتات إلى الحيوانات، ومن الحيوانات إلى البشر.

إنّ الإيقاع الممتد من دون انقطاع، من قبل ظهور الإنسان على سطح هذه الأرض، هو المسيرة الوحيدة للّامرئي. أما النباتات والحيوانات والبشر، فهي عتبات السلّم التي يخلقها الإله ليطأها خلال صعوده.

الطريق الصاعد شاق ورهيب ولانهائي، وفي هذه الهجمة سينتصر الإله، هل سينتصر؟ هل يوجد نصر؟ هل توجد هزيمة؟ إنّ التلف سيصيب جسدنا، وسيعود إلى التراب، لكن ما الذي سيؤول إليه ذلك الذي يتعدّاه

كلّ هذه المخاوف تتراجع، لأنّ كافة الآمال وحالات اليأس تختفي في دوّامة الإله اللولبية الشرهة.

إنّ الإله يضحك، ويرثي، ويقتل، ويشعل فينا النار، ثم يتركنا في منتصف الطريق نحو الاحتراق.

وهكذا يتملّكني الفرح وأنا أشعر ببداية العالم ونهايته تخترقان صدغيَّ بلمح البصر.

في لحظة كلمح البرق أتأمّل بذر وإنبات وإزهار وإثمار واندثار كلّ شجرة وحيوان وإنسان ونجم وإله.

إنّ الأرض بأكلمها بذرة زرعت في تجاويف عقلي، وكلّ السنوات التي لا تحصى والتي قضتها تكافح داخل رحم المادّة المظلم لكي تتفتّح وتثمر، تعبرها في رأسي متفجرة كوهج برقيّ عابر.

آه! لو نلحظ هذا البرق ونمسك به للحظة ثم ننظمه في قول إنساني.

فلنعضّد تلك اللحظة التي يكمن فيها كل شيء، يكمن فيها ما مضى وما سيأتي، قبل أن تضيع الدوّامة العشقيّة للّغة وتغدو تعبيراً سكونياً.

كلّ كلمة تشبه قارب نجاة، نرقص حولها مسكونين بالقشعريرة ونحن ندرك أن الإله هو ذلك المقيم الرهيب بداخلها.

مَهْمَا تعيش النشوة فإنك لن تستطيع أن تحوِّلها إلى قول، ولكن رغم ذلك عليك أن تناضل لكي تحوِّلها إلى قول. حارب بالأساطير وبالأمثال وبالاستعارات. حارب بالكلمات الشائعة، وبالكلمات النادرة، بالصيحات وبالقوافي، لكي تمنح النشوة لحماً ودماً وتجسّدها.

إن الإله يفعل ذلك. هو النشواني الأعظم. الذي يتكلّم، يكافح كي يتكلّم ببحار ونيران، بأجنحة وألوان، بأظافر وقرون. كي يستطيع القبض على نشوته.

وأنا أيضاً، كغيري من المخلوقات الحيّة، أجد نفسي في مركز الدوّامة الكونيّة. أنا عين الأنهار الشاسعة وكلّ ما حولي يرقص. ثم تضيق الدورة فجأة فتتدفّق السموات والأرض باندفاع شديد في أعماق قلبي الحمراء.

يتبيّنني الإله برهبة ومحبّة. فليس له أمل غيري، ثم يقول: "ذلك النشوانيُّ الذي يلد كلّ شيء، ويفرح بكلّ شيء، ويمحو كلّ شيء. هو إبني".

الممارسة

أ – العلاقة بين الإنسان والإله.

الدرع والشكل الأكثر قوّة للنظرية، هو الممارسة.

الممارسة ليست أن ترى فحسب كيف تقفز الشرارة من جيل إلى آخر، وإنما أن تقفز وتحترق معها.

الممارسة هي البوابة الكبرى للخلاص، وهي الوسيلة الوحيدة التي تستطيع الإجابة على أسئلة القلب.

فداخل أبعاد العقل المعقَّدة الكثيرة الالتواء تجد الممارسة أقصر الطرق. إنها لا تجد وإنما تُنشئ أقصر الطرق، وهي تقاطع يمنة ويسرة مقاومة المنطق والمادة.

لماذا ناضلت خلف الظواهر لاصطياد اللامرئي؟ لماذا كل هذه المسيرة الحربية والعشقيَّة عبر جسدك، وعبر السلالة، وعبر الإنسان والحيوان والنبات؟ لماذا يجري الزواج السرِّي خلف هذه

النضالات الشاقة، والاحتضان الكامل والوصل الباخوسي[٢] وسط النور وتحت أجنحة الظلام؟

لقد كافحت لتصل إلى حيث بدأت.. إلى النقطة الحاليّة الغامضة، والنابضة لوجودك الراهن بعيون جديدة، وبمذاق وشمّ ولمس جديد، بعقل جديد.

إنّ واجبنا الإنساني العميق لا يتلخّص في أن نوضّح أو نضيء إيقاع الإله، وإنّما في الخضوع له قدر ما نستطيع، إيقاع حياتنا الصغيرة، وعمرنا القصير.

هكذا فقط ننجح نحن غير الخالدين في أن ننجز أمراً خالداً، لأننا بذلك نتعاون مع من هو خالد.

وهكذا ننتصر على التفاصيل وعلى الخطيئة المهلكة، كما ننتصر على محدوديّة عقولنا، وتحوّل عبوديّة المادة الترابية التي مُنحت لنا لاستخدامها في حياتنا، إلى حرية.

في كلّ هذا وبعيداً عنه، يندفع كلّ البشر، وكافة الشعوب، وكلّ النباتات والحيوانات، والآلهة والشياطين كجيش جرار نحو الأعالي، منجذبين بنَفَسٍ يستعصي على الإدراك، ويصعب الفكاك منه.

نناضل من أجل أن نجعل هذا النَفَس مرئياً، ولكي نمنحه

---

(٢) باخوس هو إله الخمر والنشوة في الديانة اليونانية القديمة.

وجهاً، ولنعبّأه في كلمات واستعارات، وأفكار وتعويذات، لكي لا يضيع منّا.

لكنّ الأحرف الأربعة والعشرين[٣] التي نكتب بها لا تَسَعَه. وما كلّ هذه الكلمات والاستعارات والأفكار والتعاويذ، سوى قناع جديد يخفي الهاوية.

ولكن بهذا وحده، أي بتحديد اللامحدود، نستطيع داخل الدورة الإنسانيّة الحديثة التكوين أن نعمل. ماذا يعني أن نعمل؟ أن نملأ هذه الدورة برغبات ومخاوف ومناشط، وأن نتوسّع حتى نبلغ الحدود، وألّا تعود الحدود تسعنا، وأن تتشقّق وتتحطم. وهكذا نفعل فعلنا فنزيد الجوهر ونوسّعه.

لذلك فإن عودتنا إلى الظواهر ثانية بعد اتصالنا بالجوهر، سيكون لها قيمة هائلة.

لقد شاهدنا الدورة العليا لقوى الدوّامة اللولبيّة، وهي الدوّامة التي أطلقنا عليها إسم الإله. كان يمكننا أن نعطيها أيّ إسم آخر من بين أسماء عدة مثل: الهاوية، السّر، الظلام المطلق، النور المطلق، المادة، الروح، الأمل الأخير، اليأس الأخير، الصمت.

لكنّنا أسميناها الإله، لأنّ هذا الاسم وحده ظلّ يصطخب في أعماق أحشائنا منذ دهور سحيقة. إنّ تلك الزلزلة تعتبر ضروريّة لكي نتحسّس الجوهر الرهيب بأجسادنا بعيداً عن المنطق.

---

(٣) أحرف اللغة اليونانية.

علينا أن ندرك ونميّز بجلاء في خضمّ الدورة اللولبية للألوهية القوس الناري الصغير لعصرنا. وعلى هذا القوس المشتعل اللامرئي نستطيع أن ندرك بعمق وسريّة اندفاعة الدورة كلّها، وأن نتقدّم بانسجام مع الكون، فيتصاعد حماسنا ونحارب.

وهكذا فإنّ نشاطاتنا الراهنة إذ تلتحق باندفاعة الكون بوعي، تنجو من خطر الموت معنا.

إنّها لا تتبدّد في تحديقة باطنية راكدة للدورة الخالدة، ولا تحتقر الضرورات اليومية المقدّسة.

إنها تنحني في جدولها الدموي الضيّق وتعمل بإصرار على موضع صغير، زماني ومكاني. وهو موضع زماني ومكاني، لأنه يلتحق بالاندفاعة الإلهيّة للدورة الخالدة.

لا يهمّني ما قدّمته عصور أخرى، وشعوب أخرى من الوجوه إلى الجوهر المترامي الأطراف الذي لا وجه له. لقد ملأته بفضائل إنسانية، وعطايا وعقوبات ويقينيّات. لقد أعطت للمخاوف وجهاً، وأخضعت الفوضى لإيقاع ما، ووجدت تبريراً أسمى للعيش والعمل. لقد أدّت واجبها.

أمّا نحن فقد تجاوزنا الآن هذه الاحتياجات، ومزّقنا قناع الهاوية هذا. إن إلهنا لم يعد يسعه ذلك القناع القديم.

لقد امتلأ قلبنا بمعاناة جديدة، وبإشعاع وصمت جديدين. لقد توحّش السرّ واتّسع الإله.

إنّ القوى المظلمة، هي الأخرى تتصاعد وتوسّع رقعتها، وكلّ الجزيرة الإنسانيّة تتحرّك.

فلننْحَنِ علي قلوبنا ونحدِّق من دون وجل في الهاوية، ولنحاول أن نشكل مرّة أخرى من لحمنا ودمنا الوجه الجديد والعصري لإلهنا.

إنّ إلهنا ليس فكرة تجريديّة أو ضرورة منطقيّة أو بناءً منسجماً هائلاً من الأفكار والتصوّرات.

إنّه ليس محايداً لا تشوبه شائبة، وليس ذكراً ولا أنثى، وليس خلاصة تركيب لا رائحة له من صنع عقولنا.

إنّه رجل وامرأة، زائل وخالد، روح وروث. يلد ويلقّح ويقتل. إنّه العشق والموت معاً، يولد مرّة أخرى ويقتل، يرقص على الأرض الفسيحة خارج حدود المنطق الذي لا يتّسع للمتناقضات.

إلهي ليس كلّيَ القوّة، إنّه يكافح ويواجه الخطر في كلّ لحظة، يرتجف ويترنّح عبر المخلوقات كلّها ويصرخ، يتعرّض للهزيمة بلا انقطاع، ثم ينهض ممتلئاً بالدم والتراب ليبدأ كفاحه من جديد.

إنّه مثخن بالجراح. عيناه مليئتان بالخوف والإصرار. صدغاه محطّمتان، وفكّاه مهشّمتان، لكنّه يأبى الاستسلام، بل يتسلّق بالأرجل والأيدي، عاضاً على شفتيه، وهو يتقدّم إلى أمام من دون تراجع.

إلهي ليس كُليّ الطيبة، إنّه مليء بالقسوة والعدالة المتوحّشة،

إنّه يميّز الأفضل من دون رحمة. لا تسيطر عليه مشاعر الشفقة ولا يكترث بالناس والحيوانات، ولا بالفضائل والأفكار، إذ أنّه يحبّها جميعاً لبرهة ثم يحطّمها ويتقدّم.

إنّه قوّة تتّسع لكل شيء. قوّة تلد كل شيء. تلد الأشياء جميعاً وتحبّها، ثم تمحوها. ولو قلنا: إنّ الإله ريح عشقيّة تحطّم الأجساد لكي تعبر، ونستعيد في ذاكرتنا كيف أنه يمحو الأفراد من دون شفقة، وأنّ العشق يفعل فعله وسط الدماء والدموع، حينها نستطيع أن نلمح عن قرب وجهه الرهيب.

إلهي ليس حكيماً مطلق الحكمة، إذ أنّ عقله بَكَرَة خيط من النور والظلام، وهو يناضل لكي يبسطها في تيه الجسد.

يترنّح، يبحث، يتحسّس ذات اليمين، يتراجع إلى الوراء، يستدير يساراً، يستنشق الهواء، يتوتّر قلقاً على شفير الهاوية، يذهب بعيداً، منقّباً وباحثاً عبر ملايين القرون، وأخيراً يشعر بأنّ العتمات الطينيّة حول عقله قد غمرها الضوء.

أمام رأسه الثقيل الكالح السواد، وبكفاح يجلّ عن الوصف يبدأ في خلق العيون ليرى والآذان ليسمع.

إلهي يناضل بلا أدنى يقين. هل سينتصر؟ هل سيهزم؟ لا شيء يقينياً في الكون. إنه يراهن على اللايقين، وفي كلّ لحظة يلعب بقدره كاملاً.

يتشبّث بالأجساد الدافئة، إذ ليس له من ستر سواها. ينادي مستغيثاً، فيعلن حالة من الطوارئ في أرجاء الكون.

من واجبنا حين نسمع النداء أن نهرع للسير تحت ألويته، وأن نحارب معه، وأن ننجو أو نضيع معه.

إنّ الإله في خطر، فهو ليس القوى المطلقة لكي نعقد أيدينا، ونتفرّج، آملين في النصر الأكيد. إنّه ليس الطيب المطلق، لكي يملأنا الأمل والثقة بأنه سيرثي حالنا وسينقذنا.

إنّ الإله يتعرّض إلى الخطر على كلّ مساحة جسدنا الحاضرة. إنّه لن يجد إلى النجاة سبيلاً ما لم نحاول إنقاذه بكفاحنا، كما لا يمكننا إنقاذ أنفسنا إذا لم تتحقق نجاته.

نحن وإياه كلٌّ واحد من الدودة العمياء في أعماق المحيط، إلى ساحة المجرَّة اللانهائيّة. واحدٌ هو الذي يكافح ويتعرّض للخطر، إنّه ذاتنا. وفي صدرنا الترابي الصغير ثمّة واحد فقط يناضل ويتعرّض للخطر... إنّه الكون.

يجب أن نحسّ بأنّنا لا نتقدّم من وحدة إلهيّة إلى الوحدة الإلهيّة نفسها. فنحن لا نسير من فوضى إلى فوضى أخرى، ولا من ضوء إلى ضوء آخر، ولا من ظلام إلى ظلام آخر، لأنّه إذا كان هذا سبيلنا، فما قيمة حياتنا هذه، بل وما قيمة الحياة كلّها؟

لكنّنا نسير من فوضى كلّيّة القدرة، ومن هاوية سرمديّة غليظة من الضوء والظلام، ونكافح جميعاً: نباتات وحيوانات وبشراً وأفكاراً في ممر البرهة الصغيرة العابرة لحياتنا الفرديّة، لكي نضبط بداخلنا إيقاع الفوضى ونُنَقّي الهاوية، ونصنّع داخل أجسادنا أكبر قدر من الظلام فنحيله ضوءاً.

إنّا لا نناضل من أجل أنفسنا، ولا من أجل عرقنا، ولا من أجل الإنسانيّة. إنّا لا نناضل من أجل الأرض، ولا من أجل الأفكار، لأنّ كلّ ذلك لا يعدو كونه درجات مؤقتة وعزيزة من سلّم الإله الذي يصعد، وهي درجات تتحطّم حال أن يطأها الإله أثناء صعوده.

في حياتنا التي تمرُّ قصيرة كلمح البرق نحسّ بالإله كلّه يطأنا، ثم ندرك فجأة لِـمَ تتملّكنا رغبة هائلة وننظّم كل قوى الأرض المرئيّة واللامرئية لندفعها إلى أعلى. لو أنّنا نناضل مجتمعين ونظلّ دائماً جنوداً ساهرين فلربما تمكنّا من إنقاذ الكون.

ليس الإله هو الذي سينقذنا، وإنما نحن الذين سننقذه... محاربين ومبدعين ومحوِّلين المادة إلى روح.

لكنّ نضالنا كلّه قد يذهب هدراً إذا ما تقاعسنا، ولو أدركنا الخوف، أو تملّكنا الذعر، فإنّ الكون كلّه سيصبح في خطر.

ما الحياة إلا تطوُّعُ عسكري للإله، نتحرّك فيها حاملين صليبنا، شئنا ذلك أم أبينا، لا لنحرِّر القبر المقدّس، وإنما لنحرّر الإله المدفون داخل المادة وداخل أرواحنا.

إنّ القبر المقدّس هو كلّ جسدٍ وكلّ روح، والقبر المقدّس هو بذرة القمح فلنحرِّرها. القبر المقدّس هو العقل الذي يحترق فيه الإله وهو يصارع الموت، فلنهرع لنجدته.

إنّ الإله يعطي إشارة المعركة، فأندفع أنا إلى الهجوم مرتجفاً.

وسيّان إذا ما انسحبت معتزلاً المعركة، أو حاربت ببسالة فإنّني سأبقى دائماً في أتونها.

إذا انسحبت معتزلاً سيصير موتي عاقراً، وسيضيع مع جسدي وستتبعثر روحي أدراج الرياح. وإذا حاربت ببسالة فسأهبط إلى أعماق الأرض كثمرة مليئة بالبذور. نَفَسي سيهجر جسدي وسيتركه يفسد، ثم سينظّم أجساداً جديدة ويستمر في المعركة.

إنّ صلاتي ليست ندبة شحاذ، ولا اعترافات عاشق، ولا حسابات متواضعة لتاجر مقايضة صغير: وهبتك فاعطني.

إنّ صلاتي هي تقرير من جندي إلىَ قائده: هذا ما فعلته اليوم... هكذا حاربت لكي أنقذ قطاعي الخاص طوال المعركة، هذه هي المعوِّقات التي واجهتها... وهكذا أُفكِّر استعداداً لمعركة الغد.

أنا وإلهي فارسان نسير تحت وهج الشمس الحارقة، أو تحت رذاذ المطر، نتجاذب أطراف الحديث شاحبين، جَوْعى، وعنيدين.

أُناديه "يا قائدي" فيدير رأسه نحوي. وحين ألحظ معاناته تنتابني القشعريرة.

قاسية هي محبّتنا ونحن نجلس على المائدة نفسها، ونعاقر النبيذ نفسه في حانة الأرض المنخفضة هذه.

وحتى يحين موعد تبادل الأنخاب، تقعقع سيوف، وتنفجر

حالات من الكراهيّة ومن العشق. نسكر بروى مذابح تصعد إلى مآقينا، وتتهدّم مدنٌ داخل عقولنا، ونحن مثخنون بالجراح، ننتحب ألماً، وننهب بلاطاً عظيماً.

ب – علاقة الإنسان بالإنسان:

من أعماق الظلمة يتصاعد خط مشتعل مشيراً في اتجاه اللامرئي.

ما هو واجبنا؟ أن نصعد الخطّ الدامي معه.

فكلّ ما يندفع متصاعداً إلى أعلى ويدعم الإله في صعوده يعتبر خيراً، وكل ما ينحدر بثقله هابطاً إلى أسفل ومعيقاً الإله في صعوده يعتبر شراً.

كلّ الفضائل والشرور تأخذ قيمة جديدة، تتحرّر من أسر اللحظة والتراب، وتؤكّد وجودها المطلق من خلال الإنسان، الذي يتغيّر ضمن الزمان والمكان، وإنما خلاص الإله الذي يظلّ، هو نفسه دائماً، ذلك الإيقاع السرمدي المحارب من أجل الحرية، عبر التدفّق المتنوّع للتجسيدات والمغامرات الإنسانيّة.

نحن البشر تعساء، عديمو القلب، ضئيلون، عدميُّون. لكن في داخلنا يكمن جوهر أسمى منّا يدفعنا بلا رحمة نحو الأعالي.

من داخل هذا الطين الإنساني تتدفّق أغانٍ إلهيّة، وأفكار عظيمة، وحالات عشق جارفة، واندفاعٌ يقظٌ وغامض بلا بداية وبلا نهاية، وبلا هدف، بل ووراء كل هدف.

إنّ الإنسانية مثل كتلة من الطين، وكتلة الطين هي كلّ واحد منّا.

ما هو واجبنا؟ أن نناضل من أجل أن تترعرع زهرة صغيرة على سماد جسدنا وعقلنا.

حارب من خلال الأشياء، حارب من خلال الجسد، حارب عبر الجوع وعبر الخوف، حارب عبر الفضيلة وعبر الخطيئة لكي تخلق إلهاً.

كيف يبدأ الضوء من نجمة ثم يصبّ في العتمة الخالدة ويسير في مسيرة أبديّة؟

فالنجمة تموت لكن الضوء لا يموت.

ناضل من خلال اللقاء المؤقّت للقوى المتناقضة، الذي يشكّل وجودك أنت، لكي تبدع أقصى ما يستطيعه الفاني في هذا العالم... أن تبدع صيحة.

إنّ هذه الصيحة تترك للأرض الجسد الذي أنجبته، وتتقدَّم في مسيرتها وهي تعمل أبداً.

عشق جارفٌ يعبر الكون، إنّه كالأثير، أقوى من الفولاذ وأرقّ من النسيم.

إنّه يقتحم ويعبر كل شيء، يذهب وينعتق، لا يخلد للراحة على المواقع الدافئة، ولا يستعبده الجسد الحبيب. إنّه عشقٌ على أهبة الاستعداد للقتال، يراقب البشر، وهم يتحرّكون ويتنهدّون كالأمواج، من وراء كتفي الحبيب، يراقب الحيوانات والنباتات، وهي تلتحم ثم تموت. يراقب الإله وهو يتعرّض للخطر، ثم يستغيث منادياً: "أنقذني".

العشق!! هل لنا أن نطلق اسماً آخر غير العشق على هذه الاندفاعة، التي حين تطوف ببصرها على المادة، تسحرها وتبدي رغبتها في أن تطبع مظهرها الذاتي عليها. تتبيّن الجسد وتلتحم بتلك الصيحة العشقيّة المعلّقة هي الأخرى به، ولينجبا ابناً ويضيعا، ثم يصيرا خالِدَيْن عبر الابن.

إنّها تقتحم الروح وتظهر رغبتها في أن تتوحّد معها، وألّا نوجد أنا وأنت. تعصف على بني البشر وتعبِّر عن رغبتها، وهي تحطّم الجسد والعقل، في أن تخلط كلّ الأنفاس فتغدو ريحاً عاتية وتصيب الأرض بالهياج.

في اللحظات الحاسمة يدفع العشق البشر بقوة ليلتحم بعضهم بالبعض الآخر، ليلتحم العدوّ والصديق، والطيّب والخبيث. إنّه ريح أعلى منهم، ومستقلّة عن رغباتهم وأفعالهم.

إنّه نَفَس الإله. إنّه تنفسُّه على الأرض. يهبط على البشر كيفما يشاء، في هيئة رقص أو عشق أو جوع أو دين أو مذبحة ومن دون أن يستأذن.

داخل سفينة الأرض، وفي تلك اللحظات الحاسمة يحاول

الإله جاهداً أن يعجن مادة الأجساد والعقول، وأن يقذف بكلّ تلك العجينة داخل دوّامته اللولبيّة القاسية، وأن يعطيها وجهاً... وجهه هو.

لا ينهكه الغثيان، ولا يتسرّب اليأس إلى أحشائه الترابيّة المظلمة. يعمل ويتقدّم، يلتهم لحمهم، يتشبّث بالمعدة وبالقلب، بالذَكَر وبالعقل.

إنّه ليس ربّ الأسرة الطيّب، لأنّه لا يقسم الخبز بالتساوي بين أبنائه. فالظلم والقسوة واللهفة والجوع هي إناث الخيل الأربعة التي تقود مركبته على أرضنا المضطربة هذه.

إنّ الإله لا يُصْنَعُ أبداً من السعادة والرفاهيّة والعظمة، وإنّما من الخجل والجوع والدموع.

في كلّ لحظة حاسمة تخاطر جماعة من البشر، وهي تتقدّم في الطليعة، معيدة حقيقة الإله، وهي تحارب حاملة على عاتقها كل مسؤوليّة المعركة.

ذات زمان مضى، قام الكهنة والملوك، والنبلاء والمتمدّنون، بإنشاء حضارات، وحرّروا الألوهيّة.

أمّا إله هذا العصر فإنّه عامل متوحش من الإجهاد ومن الغضب ومن الجوع، تفوح منه روائح الدخان والنبيذ والعرق، يلعن الآلهة، يوجع وينجب أطفالاً، وينتابه الأرق فلا يجد إلى النوم سبيلاً. يطلق صيحاته ويتوعّد فيتردّد صداها في الوديان والجبال.

لقد تغيّرت الرياح. إنّا نتنفّس ربيعاً ثقيلاً ومليئاً بالبذور،

الصيحات تعلو، من الذي يصيح؟ نحن الذين نصيح، نحن البشر. الأحياء والأموات، والذين لم يولدوا بعد، لكنّ الخوف يداهمنا فجأة فنلوذ بالصمت.

إنّا نركن للنسيان بسبب الكسل والعادة والجبن، لكنّ الصيحة تمزّق أحشاءنا مرّة أخرى وكأنّها نسر.

الصيحة لا تأتي من الخارج، إنّها لا تأتي من بعيد، كي يمكننا أن نتحاشاها. إنّها تسكن في قلوبنا وتطلق نداءاتها.

"أحرق بيتك" هكذا ينادي الإله، "أنا آتٍ .كلّ من له بيت لن يحظى بأن أحلّ ضيفاً عليه".

"أحرق أفكارك. هدِّم تأمّلاتك! كلّ من عثر على الحل لن يعثر عليّ".

"إني أحب الجوعى والقلقين والمشرّدين. فهؤلاء يفكّرون دائماً في الجوع والتمرّد، وفي الطريق اللانهائي. فيّ أنا".

"أنا آتٍ، دع زوجتك، ودع أبناءك، ودع أفكارك، واتبعني. أنا المتشرّد الأعظم".

"اتبعني! تقدّم فوق الفرح والحزن، فوق السلام والعدالة والفضيلة! تقدّم! حطّم هذه الأصنام، إنّها لا تسعني! وتحطّم أنت أيضاً لكي أستطيع العبور".

النار! هذا هو واجبنا الأعظم، في هذا العصر، ووسط كل هذه الفوضى العديمة الأخلاق والآمال.

حارب عديمي الإيمان! إنّ عديمي الإيمان هم الهائنون والمتخمون والعاقرون.

إنّ كراهيّتنا لا تقبل التسامح، لأنّها تحتوي على ما هو أصلح وأعمق من مشاعر الإحسان مما يفتح الطريق واسعاً أمام الحب.

إنّا نكره ولا نتكيّف. نحن غير عادلين بل قساة ومليؤون بالتوتر وبالإيمان، نطلب المستحيل كالعشّاق.

فلتأتي النار لتطهّر الأرض ولتنفتح أكثر الهاويات رعباً بين الخير والشر.

لينتشر الظلم وليحلّ الجوع فيمزّق أحشاءنا. هذا هو خلاصنا الوحيد ولا خلاص غيره.

عصرنا هذا هو لحظة حاسمة وعنيفة. إنّه عالـم يتحطّم وآخر لم يولد بعد.

عصرنا ليس عصراً للتوازن، فلا مكان لفضائل كالنُّبْل والتسامح والسلام والحب أن تجد لها فيه أرض خصبة.

إنّا نعيش الاندفاعة الرهيبة، نثب على الأعداء، وعلى الأصدقاء الذين يتخلّفون وراءنا، يتهدّدنا الخطر في أُتون الفوضى، نشرف على الفرق، لا تسعنا الفضائل القديمة، ولا الآمال القيمة، لا تسعنا النظريات والممارسات القديمة.

إنّ رياح الدمار تهبّ. هذا هو نَفَس الإله في عصرنا هذا. فلنذهب معه. إنّ رياح الدمار هي انجذابة الرقص الأولى لدوّامة

الخلق. تهبّ على العقول والمدن، تهدم الأفكار والمنازل، تمرّ عبر الصحارى وتصيح "تهيّأوا... الحرب قادمة... الحرب قادمة!".

هذا هو عصرنا، خيراً كان أم شراً، جميلاً كان أم قبيحاً، غنيّاً كان أم فقيراً. نحن لم نختره، هذا هو عصرنا، إنّه الهواء الذي نتنفّسه، والطين الذي مُنِح لنا، هو الخبز، وهو النار، هو الروح!

فنتقبّل الأمر بشجاعة. إنّ قسمتنا ونصيبنا هو الحرب. فلنشدّ الأحزمة على خصورنا جيّداً، ولنسلّح أجسادنا وقلوبنا وعقولنا! ولنأخذ مواقعنا في ميدان المعركة!

إنّ الحرب هي السيد الشرعيّ لعصرنا.

وحده المحارب، هو الإنسان الكامل والشريف في عصرنا، لأنّه هو وحده المؤمن بالنَفَس الأعظم لزماننا في حالات دماره وكراهيته ورغبته، ممتثلاً للمشيئة المعاصرة لإلهنا.

إنّ تطابقنا هذا مع الكون هو الذي ينجب الفضيلتين العظيمتين: المسؤولية والتضحية.

علينا واجب معاونة الإله، الذي يتفجّر غضباً، لكي يتحرّر بداخلنا وبداخل الإنسان، وداخل الجموع التي تعيش في العتمة. يجب علينا أن نكون متأهّبين في كل اللحظات، لكي نقدّم حياتنا في سبيله. فالحياة ليست هدفاً لذاتها وإنما هي الأخرى أداة مثلها مثل الموت، والجمال، والفضيلة، أداة من؟ أداة الإله الذي يحارب من أجل الحرية.

نحن كلّنا كينونة واحدة. جوهر واحدٌ مهدّد. لو أنّ روحاً في أقاصي العالم الذي ينحدر هابطاً سقطت، فإنّها تحطّم أثناء سقوطها روحنا أيضاً. لو أنّ عقلاً في أقاصي العالم يغرق في البلاهة فإنّه يملأ أصداغنا بالظلام.

لو أنّ شخصاً واحداً فقط، يناضل في أقاصي الأرض والسماء. لو أنّ واحداً فقط كهذا ضاع، فإنّ مسؤولية ضياعه تقع علينا. لو ضاع فنحن أيضاً سنضيع.

هذا هو الأمر الذي يجعل خلاص الكون خلاصنا أيضاً. إنّ تضامننا مع البشر الآخرين ليس ترفاً لحنان القلب، وإنما هو شكل عميق من أشكال الحماية الذاتيّة، واستجابة لضرورة حقيقية... ضرورة تأمين سلامة من يحمي ظهرك في الجيش وأنت تحارب معه.

إنّ أخلاقنا تتصاعد إلى آفاق أكثر سموّاً. فنحن كلّنا جيش يحارب، لكنّنا لا نعلم علم اليقين ما إذا كنّا سننتصر أو سنُهزم؟

هل يوجد خلاص؟ هل يوجد هدف لنعمل من أجله لكي نجد خلاصاً لأنفسنا؟

أم أنّه لا يوجد خلاص، إذ لا يوجد هدف، وكل شيء بلا جدوى، وكل عطائنا الجماعي لا قيمة له؟

لا هذا ولا ذاك. إنّ إلهنا ليس مطلق القدرة، كما أنّه ليس مطلق الطيبة، وليس واثقاً في نصره أو هزيمته.

جوهر إلهنا غامض ينضج في كل مرّة دفعة واحدة، ربما يرجّح احتمال النصر بكل فعل شجاع نقوم به. ربما تكون كل هذه النضالات من أجل الخلاص والنصر أدنى من طبيعة الألوهية.

ومهما كانت الحقيقة فإننا نحارب بلا يقين، وفضيلتنا هي ألا نكون واثقين من مردود يحظى باحترام عميق.

كلّ الوصايا تبعث من جديد. نحن لا نرى ولا نسمع كما كنّا نرى أو نسمع سابقاً، ولا نكره أو نحب كما كنّا سابقاً. هكذا تتجدّد عذريّة الأرض.

يكون للخبز وللماء وللمرأة مذاق جديد، ويكون للفعل قيمة جديدة لا حدود لها.

كلّ ما يحمل سموّاً مؤقتاً كالجمال والمعرفة، والأمل والنضال الاقتصادي، وأعباء الحياة اليوميّة تبدو وكأنها هموم لا معنى لها. في كلّ مكان تقشعرّ ونحن ندرك أن النَفَس العظيم المكبّل بالأغلال يناضل من أجل الحرية.

لكلّ طريقه الخاص الذي يقوده للخلاص. البعض من خلال الفضيلة، والبعض الآخر من خلال الشر.

لو أنّ طريقك الذي يقودك إلى الخلاص يمرّ عبر المرض والنفاق والعار، فإنّ من واجبك أن تغوص في أعماق المرض والنفاق والعار، حتى تنتصر عليها، ومن دون ذلك لن يكون لك خلاص.

ولو أنّ طريقك الذي يقودك إلى الخلاص هو طريق الفضيلة

والفرح والحقيقة، فإنّ من واجبك أن تغوص عميقاً في الفضيلة والفرح والحقيقة، لكي تنتصر عليها وتتركها خلفك، إذ من دون ذلك لن يكون لك خلاص.

إنّا لا نحارب شهواتنا المظلمة بفضيلة رزينة وشاحبة ومحايدة تسمو عليها، وإنما بشهوات أخرى أقوى منها وأشدّ بأساً.

نترك بابنا مفتوحاً للخطيئة، لا نغلق آذاننا كي لا نسمع الحوريّات، ولا نقيّد أنفسنا من الخوف إلى سارية فكرة عظيمة، كما أنّنا لا نهجر السفينة، ونختفي لنسترقّ السمع للحوريات ونقبّلهن، وإنما نتابع مسيرتنا، ونختطف الحوريَّات ونأخذهن إلى السفينة لكي يسافرن معنا.

هذا هو تصوّفنا الجديد.

الإله يصيح في قلبي: "أنقذني".

الإله ينادي البشر والحيوانات والنباتات والجمادات: "أنقذوني".

إصغ إلى قلبك واسمعه. حطِّم جسدك واستيقظ: نحن كلّنا جسد واحد.

أحبب الإنسان لأنه هو أنت نفسك.

أحبب الحيوانات والنباتات لأنّك كنت كذلك، وهي الآن تتبعك مؤمنة ومتعاونة وخادمة لك.

أحبب جسدك، فبجسدك وحده تستطيع أن تكافح على هذه الأرض، وأن تحوّل المادة إلى روح.

أحبب عناصر المادة فالإله يتشبّث بها وهو يحارب، فحارب معه.

عليك أن تموت كلّ يوم، وأن تولد كلّ يوم، وأن ترفض ما عندك كلّ يوم.

فالفضيلة الكبرى ليست في أن تكون حُرّاً، وإنما في أن تناضل من أجل الحريّة.

لا تتواضع وتتساءل "هل سننتصر؟ هل سنهزم؟" بل حارب.

وفي كل لحظة من حياتك إجعل من مغامرة العالم مغامرتك.

هذه هي أيها الرفاق وصايانا العشر الجديدة.

ج - علاقة الإنسان بالطبيعة:

إنّ هذا العالم بكلّ هذه السلسلة اللانهائيّة المتنوّعة من الظواهر ليس وهماً، ولا مسرحيّة متعدّدة الألوان لمرآة عقلنا العاكسة، ولا واقعاً محضاً يعيش ويتشكّل بحرية مستقلاً عن قوى عقلنا.

إنّه ليس الرداء المضيء الذي يرتديه الجسد الغامض لإلهنا، ولا نصف الجدار المرئي المعتّم بين الإله والسر.

كل هذا العالم الذي نراه ونسمعه ونتحسّسه، هو المتاح للحواس الإنسانيّة، وكلّه خليط إلهي للقوّتين الكونيّتين العظيمتين.

إحدى القوى تهبط وهي تطمح في أن تتبعثر وأن تتجمّد وأن تموت. أما القوّة الأخرى فإنها تصعد على أمل أن تبلغ الحرية والخلود.

هذان الجيشان، الجيش المظلم والجيش المضيء، جيش الحياة وجيش الموت، أبداً يتصادمان والآثار المرئيّة لهذا الصدام هي الأشياء والنباتات والحيوانات والبشر.

إنّ القوى المتصارعة تتصادم أبداً، تتعانق وتتعارك، تنتصر وتهزم، تتصالح ثم تبدأ في الصراع من جديد على امتداد الكون كلّه. من المرئي في حركة قطرة ماء إلى مجرّة النجوم اللانهائيّة.

إنّ أدنى أنواع الحشرات، وأصغر الأفكار، هي معسكر كامل للإله، حيث يتهيّأ فيها جميعاً ويستعد لمعركة حاسمة.

في أقل جزيئات الأرض والسماء أهميّة أسمع إلهي ينادي: "النجدة!".

كلّ شيء هو مجرّد بيضة في داخلها تكمن بذرة الإله القلقة التي تعمل ساهرة، وتصطفُّ داخل البيضة وخارجها قوى لا حصر لها لتدافع عنها.

بنور العقل، وبشعلة القلب، أُحطّم كلّ السجون التي تحبس الإله، أبحث وأحاول وأدق على تحصينات المادة لأفتح فيها كوّة، ولأُنشئ عبر هذه التحصينات بوابة الخروج البطولي لإلهنا.

حارب... لاحق الظواهر بصبر وأناة لتطوّعها في قوانين، وبذلك ستفتح طرقاً تمر على الهاوية، وتساعد الروح على أن تجد مداها.

ضع نظام عقلك في النظام الانسيابي للعالم. أحفر خطة المعركة على الهاوية بوضوح. ناضل مع القوى الطبيعيّة، ودعها تخضع للاقتران بهدف أعلى منها. حرّر الروح التي تكافح داخلها وتشتاق للالتحام بالروح التي تناضل في أحشائك.

حينما يُسخّر الإنسان، وهو يناضل داخل الهاوية، مجموعة من الظواهر لقوانين عقله، ويبتدع لهذه القوانين قولاً جديراً بها، فإنّ العالم يتنفّس، وتنتظم الأصوات، وتنضج ملامح المستقبل، وتتحرّر كل الأرقام المظلمة التي لا تحصى، وتذعن وتستسلم للنوعيّة الغامضة.

إنّنا نتعجّل، بمساعدة عقلنا، في إرغام المادة على السير معنا، ونغيّر اتجاه القوى المتّجهة إلى أسفل، واتجاه التيار، ونحوّل العبودية إلى حريّة.

إنّنا ونحن نخضع العالم المرئي من حولنا، لا نحرّر الإله فقط، وإنما نصنعه أيضاً.

يصيح الإله "افتح عينك. أريد أن أرى! أرهف السمع. أُريد أن أسمع! تقدّم إلى الأمام. أنت رأسي!".

إنّ الحجر ينجو حين نرفعه من الطين ونضعه في بناء منزل أو حين ننقش عليه ملامح الروح.

البذرة تنجو... ولكن ماذا تعني نجاتها؟

تعني: أن يتحرّر الإله الذي بداخلها، فتزهر، ثم تثمر، ثم تعود مرّة أخرى إلى التراب. فلنساعد البذرة على النجاة.

لكل إنسان محيطه الخاص الذي يضم ما يخصّه من أشياء وأشجار، من حيوانات وبشر وأفكار، وهو يتحمّل واجب إنقاذ هذا المحيط، عليه وحده دون غيره تقع المسؤولية، وإذا لم يتم إنقاذ المحيط، فلا خلاص لصاحبه.

عليه مسؤولية إنجاز المهام الكبيرة المناطة به قبل موته، ولن يجد للنجاة سبيلاً إن لم ينجزها، لأنّ روحه مبعثرة وأسيرة هذه الأشياء، التي يضمّها محيطه الخاص، أسيرة الأشجار والحيوانات والبشر والأفكار. ولن ينجو بروحه حتى ينجز المهمات الكبيرة.

لو أنّك عامل، فأفلح الأرض وهيّئها لكي تثمر. إنّ البذور تصيح داخل التربة، والإله يصيح داخل البذور، حرّره... إنّه ينتظر خلاصه على يديك، ثمّة حقل ينتظر خلاصه على يديك، وثمّة آلة تنتظر أن تبثّ فيها الروح. إنّك لن تجد إلى النجاة سبيلاً حتى تنقذ كل كذلك.

لو أنّك محارب... أبعد عنك الإحساس بالرأفة، لأنّ الأسى لا يدخل ضمن واجباتك. أقتل العدو بلا رحمة، واستمع إلى الإله يصيح من داخل جسد العدو:

"أقتل هذا الجسد فإنه يعيقني. أقتله لكي أستطيع العبور".

لو أنّك حكيم، حارب داخل الجمجمة. أقتلِ الأفكار وأخلق أفكاراً جديدة. إنّ الإله يختبئ داخل الجسد. حطّم الفكرة وحرّره. امنحه فكرة أرحب كي يقيم فيها.

لو أنّك امرأة، اتجهي صوب الحب واختاري بجهد وتبصُّر مضنٍ من بين كل بني البشر والد أبنائك. لست أنت التي تختارين وإنّما ذلك اللامتناهي، الذي لا يتحطّم ولا يعرف الرحمة، ذلك الإله الذكوري الذي بداخلك. أنجزي واجبك كاملاً. أنجزي واجبك المحتشد بالمرارة والعشق والشجاعة. قدّمي جسدك كلّه، جسدك المحتشد بالدماء والحليب.

قولي: هذا الذي أحمله في حجري وأرضعه من حليبي سنيقذ الإله، فلأعطينّه، دمي كلّه وحليبي.

إنّ لهذا العالم المنساب قيمة عظيمة لا حدود لها، ففيه يتشبّث الإله ويصعد، وبه يستطعم الإله الأكبر.

ينفتح قلبي ويغمر النور عقلي، وفجأة يتكشّف في معسكر العالم الرهيب هذا وكأنّه ساحق للعشق.

العاصفتان القويّتان والمتعاكستان، إحداهما ذكرٌ والأخرى أُنثى يلتقيان ويتصادمان في تقاطع طرق، يتزاوجان للحظة، فينتفخان ويتجلّيان للعيان.

تقاطع الطرق هذا هو الكون.

تقاطع الطرق هذا هو قلبي.

رقصة التلاحم العشقي العظيمة تتردّد من أكثر جزئيّات المادة عتمة إلى أعظم الأفكار قيمة. المادة زوجة لإلهي، وهما يتصارعان معاً. يضحكان ويبكيان ويصيحان داخل حجرة الجسد.

يتناسلان ويندمجان، يملآن اليابسة والبحار والهواء بنباتات غضّة، وبحيوانات صغيرة، وبأطفال من البشر وأرواح. إنّ الزوجين الأصليين للأشياء كلّها يتعانقان ثم يفترقان ويتكاثران.

شهوات العالم مجتمعة تتفجّر داخل كلّ كائن حي، والإله يتعرّض للخطر داخل عذوبة الجسد ومرارته، لكنّه يتمطّى ويقفز من العقل والأرداف، ويتخبّط حتى يقبض على عقل وأرداف

جديدة، ثم يبدأ مرّة أخرى كفاحه من أجل الحرية. ويطلّ لأول مرّة على هذه الأرض عبر عقلنا وقلبنا على ساحة معركته.

يا للفرح... يا للفرح... لم أكن أدرك كيف أنّ هذا العالم متوحّد معي إلى هذه الدرجة، وكيف أنّنا جميعاً جيش واحد، وإنّ شقائق النعمان والنجوم تحارب عن يميني عن يساري ولا تتعرّف عليّ، لكنّني ألتفت نحوها وأحييها.

الكون دافئ وحبيب إلى النفس وأليف يبعث روائح جسدي، إنّه عشق وحرب في آن، إنّه قلق متأجّج. إصرارٌ وحيرة. رعبٌ وحيرة.

وفي لمعة برق خاطفة ألمحُ على أعلى قمم القوّة آخر زوجين وأكثرهما رهبة وهما يتعانقان: الرعب والسكينة وبينهما ألمح شعلة متوهّجة.

السكينة

روح الإنسان شعلة متوهّجة، طائر يقفز من غصنٍ إلى غصن، ومن رأسٍ إلى رأس، صائحاً "لا أستطيع أن أستقر. لن أبلغ حدّ الاحتراق ولو بلغت فلا أحد يستطيع إطفائي!".

فجأة يصير الكون كلّه شجرة من نار، وبين الدخان والنار أقف مشتعلاً على قمّة اللهب، أقبض على ثمرة النار، أعني النور، ثمرة صافية ورطبة وهادئة.

ومن القمّة الشاهقة أُحدِّق في الخط الأحمر الذي تصاعد إلى أعلى، مرتجفاً ودامياً وفسفورياً، وهو يزحف داخل التجاويف المبتلّة لعقلي كحشرة تملّكها العشق.

إنّ السلالة والإنسانية والأرض، والنظرية والممارسة والإله، ما هي سوى أطياف من تراب وعقل، تصلح للقلوب البسيطة التي يدركها الخوف، تصلح للأرواح التي تتلقّح بالرياح وتعتقد أنّها تتوالد.

من أين نأتي؟ وإلى أين نذهب؟ ما معنى هذه الحياة؟ هكذا تصرّح القلوب وتتساءل الرؤوس وهي تقرع على فوهة الهاوية.

تحرّكت كتلة نار لتجيب. حتماً سيأتي يومٌ تطهّر فيه النيران الأرض. وحتماً سيأتي يوم تقضي فيه النيران على الأرض. هذه هي القيامة الثانية.

الروح لسان ناري يلعق ويصارع، يشعل النار في كتلة من العالم حالكة الظلمة، وذات يوم سيصير العالم كلّه حريقاً.

النار هي القناع الأوّل والأخير لإلهي، ونحن نبكي ونرقص بين النارين العظيمتين.

أفكارنا وأجسادنا تتلألأ وتتألّق. أقف هادئاً بين النارين. أقول وقوى عقلي ساكنة وسط الزوبعة: ما أقصر الزمان، وما أضيق المكان بين النارين، وما أشدّ بطء إيقاع الحياة. إنّي لا أجد زماناً، ولا أجد مكاناً، لكي أرقص! أنا على عجل.

فجأة يصير إيقاع الحياة دوّاراً، ويتلاشى الزمن، وتدخل اللحظة في الدوّامة فتصير أبداً، وكلٍّ موضع سواء كان حشرةً أم نجمةً أم فكرةً يصير رقصاً.

لقد كان سجناً فتحطّم السجن، وتحرّرت القوى الرهيبة التي كانت بداخله، و لم يعد للموضع أي وجود.

هذه المرئية العليا من التمرّن الروحي تسمّى السكينة، ليس لأنّ مضمونها هو بلوغ أقصى درجات اليأس تطرّفاً، أو أقصى

درجات الفرح والأمل رُقيّاً واستحالة على الوصف، وليس لأنّها أقصى درجات المعرفة، التي تترفّع عن مخاطبة أقصى درجات الجهل العاجزة عن الحديث.

السكينة تعني أنّ كلّ من قضى فترة تطوّعه على مستوى المهام الكبرى سيبلغ القمّة القصوى للمحاولة، بعيداً عن كلّ مهمّة، حيث لم يعد يناضل أو يصيح وإنما ينضج كاملاً بصمت وصميميّة، متوحّداً أبداً مع الكون. لقد اندمج بالهاوية وتصالح معها كما تتصالح بذرة الرجل مع أحشاء المرأة.

صارت الهاوية زوجته التي ينشغل بها، يفتِح ويأكل أحشاءها ويغيّر دمها، يضحك ويبكي، يصعد ويهبط معها ولا يتركها.

كيف الوصول إلى أحشاء الهاوية لتجعلها تثمر؟ ليس من السهل بلوغ الإجابة على ذلك، لأنّها لا تستسلم للّغة، ولا تنصاع للقوانين، لكل شخص خلاصه الخاص الذي يبلغه بحرية مطلقة.

فكما لا توجد طريقة للتعلّم لا يوجد مخلِّص ليفتح الطريق، ولا يوجد طريق ليُفْتَح.

فكلّ من يرتفع فوق مستوى هامته، يستطيع أن ينعتق من عقله الصغير المليء بالتساؤلات، وأن يقف شامخاً لا وجل وسط السكون العميق، متألّماً ولاهياً، صاعداً بلا توقّف من قمّة إلى قمّة، مدركاً أنّ الارتفاع لا نهاية له، يغنّي وهو معلّق على الهاوية هذه التعويذة السحرية المفعمة بالفخر:

أُؤمن بإله واحد، حام للحمى، ثنائي الميلاد، مدجّج بالسلاح، شديد المعاناة، عظيم القدرة، لا كُليّ القدرة، محارب على الحدود القصوى، قائد وامبراطور كل القوى المضيئة، المرئيّة منها والمستترة.

أؤمن بالأقنعة المؤقّتة التي لا تُحصى، والتي اتّخذها الإله عبر القرون، وأتبيّن خلف التيّار المنساب بلا انقطاع، وحدة لا تنفصم عُراها.

أؤمن بكفاحه الشاق والمُضْني، الذي يطوّع المادة ويجعلها تثمر كنبع يهب الحياة نباتات وحيوانات وبشراً.

أؤمن بقلب الإنسان، تلك التقاة الترابيّة، حيث يناضل حامي الحمى ليلَ نهار ضد الموت.

"النجدة... النجدة" هو نداؤك يا سيِّدي، أسمعه بداخلي كما يسمعه الأسلاف والذين لم يولدوا بعد، وكلّ الأجناس بل الأرض كلّها برهبة وفرح.

طوبى لكلّ من يسمع النداء فيهبّ ليخلّصك يا سيدي وهو يقول: "أنا وأنت وحدنا لنا وجود".

طوبى لكلّ من ساهم في إنقاذك فيتوحّد بك يا سيدي وهو يقول: "أنا وأنت كيان واحد".

وطوبى ثالثاً لكل من يحمل على كتفيه من دون أن ينحني، ذلك السرّ العظيم المتسامي والرهيب: حتى هذا الواحد لا يوجد وجوداً محضاً.

نيكوس الذي لم يساوم[٤]

بقلم: هيلين كزنتزاكيس[٥]

(٤) عنوان المقال من اختيارنا، وهو في الواقع عنوان الكتاب الذي ألّفته هيلين عن زوجها نيكوس كزنتزاكيس.

(٥) نشر هذا المقال في مجلة "تاخذوروموس" أي (البريد) اليونانية صيف عام ١٩٨٣ بمناسبة الاحتفال بالذكرى المئوية لميلاد زوجها نيكوس كزنتزاكيس.

زوجي... كان قاسياً كمكتبة

تعرّفت على نيكوس عام ١٩٢٤. وكان لقائي الأوّل به مجرّد صدفة غريبة، إذ دعتني صديقتي ماريكا وشقيقتها كيتي للتعرّف عليه، ذلك لأنّ الشقيقتين كانتا تعتبرانه شخصاً مدهشاً. وكانت زوجته السابقة غلاتيا تعيش حينذاك مع إفيري، وأذكر أنّها أخبرتني حينها "أنّه لا يوجد شخص في العالم يستطيع أن يحكي مثل كزنتزاكيس، لكنّه قاسٍ كمكتبة"، ويومها قلت لنفسي إنّه ليس ثمّة سبب واحد يدفعني للتعرّف عليه، إذ ما هي فائدتي لكزنتزاكيس؟ أنا فتاة في الحادية والعشرين من العمر، ثم إنّي غير مثقّفة ويتيمة، فقد توفى والدي وأنا في سن مبكرة، ولم أكمل سوى المرحلة الثانوية، ولم أتجاوزها لأن الأوصياء علينا كانوا يردّدون "أنّ اليتامى لا يتعلّمون".

خلاصة القول لقد تعرّفت على نيكوس خلال إحدى الأمسيات حيث كنّا في رحلة إلى بانديلي (ضاحية على أطراف مدينة أثينا). (كان الظلام حالكاً ذلك المساء، ومنذ اللحظة الأولى

وقع في غرامي، في نفس تلك الليلة... ليلة لقائنا الأول، وقال لي "لن نفترق أبداً" و"لو أردت الذهاب فلن أتركك تذهبين". كان ذلك قبل يوم واحد من عيدي (عيد الاسم عند اليونانيين).

كنّا نتخاطب بصيغة الجمع

في البدء كنت أنظر إلى كزنتزاكيس كأستاذ، ولم يدُرْ في خلدي إطلاقاً بأنّي سأقع في حبّه. كان شخصاً ناضجاً بينما لم أكن بلغت سن النضج بعد. ومنذ ذلك اليوم بدأنا التخاطب بصيغة الجمع، واستمرّ ذلك حتى وفاته. لقد تعوّدنا على ذلك حتى صارت صيغة الجمع، التي لا يستخدمها الناس في حياتهم اليومية، صيغة المفرد بالنسبة لنا.

استمرّينا على التخاطب بصيغة الجمع كما بدأنا في بداية تعارفنا، كنت، ليتكم تعلمون، أشعر باحترام وإعجاب شديدين نحوه. في البداية صرنا صديقين وانتظرني حتى بلغت مرحلة النضوج فاتخذني زوجة له، لكن صيغة الجمع بقيت ثابتة في تخاطبنا المشترك، وفي بعض الأحيان كان يبدأ حديثه بصيغة المفرد وبعد أن يسترسل قليلاً ينفجر ضاحكاً. كانت صيغة المفرد تبدو لنا غريبة، وفاقدة للحنان، هكذا اعتدنا على صيغة الجمع.

زوجتي.. رفيقتي

منذ عام ١٩٢٨ صرت أعيش معه كزوجة، لكن زواجنا الطقوسي لم يأت إلا بعد ١٨ عاماً، إذ لم يعقد عليّ طوال تلك المدّة ولم يضايقني ذلك إطلاقاً. لا أستطيع أن أتصوّر حالنا لو أن والديّ كانا على قيد الحياة. بالطبع لم يكن معقولاً أن أترك بيتي وأذهب لأعيش مع رجل ما، لكن المعجزة حدثت. إنّ الأجيال التي تعيش الآن تستطيع أن تفهم مثل هذه الأشياء، ولكن في ذلك الزمن كان وضعنا يعتبر أمراً خارقاً. وهكذا تركت منزلي وذهبت لأعيش معه ولم يبدر من أي أحد ما يعكّر ذلك. حتى أعمامي الذين ينحدرون من أصول ارستقراطية ظلّوا يستقبلونه بترحاب حين كنّا نزورهم في منازلهم رغم أنّهم كانوا ضيّقي الأفق. ولم يغلق أيّ أحد بابه في وجهي بسببه، بل كانوا يكنّون له احتراماً خاصاً، ويعتبرونه شخصاً مختلفاً، لكن كزنتزاكيس نفسه لم يقدّمني لأي شخص بعبارة "هذه صديقتي" وإنما كان يقول لدى تعريفي "هذه رفيقتي... هذه زوجتي".

في تلك الفترة كان كزنتزاكيش كثير الأسفار، ولقد رافقته في بداية علاقتنا إلى القدس وقد سمح لي وليّ أمري بالذهاب معه بعد أن اصطحبت معي صديقتين كنّ السبب، كما أسلفت، في تعرّفي على كزنتزاكيس. وحينها وجّهني نيكوس بالذهاب إلى صحيفة "كل يوم" لأحصل منها على بطاقة صحافية، تساعدني على السفر، مقابل أن أكتب فيها مشاهداتي في القدس. وحين

عدنا إلى اليونان نشرت فعلاً مقالات في الصحيفة المذكورة، كما نشر هو مقالات في صحيفة "القول الحر".

وحدي في باريس

في عام ١٩٢٦ اعتقدت أن نيكوس سينتدب للعمل في إحدى الصحف في باريس، فذهبت إلى صحيفة "كل يوم" التي وافقت على أن أكون مراسلة لها في باريس مقابل مرتّب شهري قدره ثمانمائة فرنك. وهكذا توجّهت إلى باريس لكن كزانتزاكيس لم يستطع السفر، وظلّ يكتب لي يومياً على أمل أن أجد له طريقة تساعده على الوصول إلى باريس.

لقد احتفظت بكلّ الخطابات التي كتبها لي طوال حياته، والتي تبلغ الخمسمائة خطاب تقريباً. كان هو أيضاً يحتفظ بخطاباتي إلى أن أحرقتها لأنها عديمة الأهمية. وحين توفّرت له فرصة السفر إلى باريس لم يكن يملك مالاً. وكان يعاني من فقر مدقع، كما لم يعطوه نقوداً للسفر، وهكذا لم يأتِ فبقيت هناك وحدي، لكنّه سافر في فترة لاحقة إلى مصر وسيناء مع صديقه الرسّام كالموخا، أمّا أنا فواصلت تزويد الصحيفة من باريس برسالتين كلّ أسبوع، وحين اعتلّت صحتي وعاد نيكوس إلى اليونان رجعت أنا أيضاً.

بعدها سافرنا إلى روسيا، ومن هناك كنت أكتب لصحف فرنسية. أمضينا عدّة شهور في روسيا وانتقلنا من موسكو إلى

بيكوفو، ثم نزلنا على طول نهر الفولغا مروراً بجورجيا وأرمينيا والقفقاز. ومّما سهّل سفرنا أنّ الروس سمحو لنا السفر بالقطارات والبواخر مجاناً، كان ذلك عام ١٩٢٨. فاتني هنا أن أقول إنّ كزنتزاكيس سافر بمفرده إلى سيبريا، والسبب هو أنّ مرافقنا "بناييت" أنفق كل ما كانا جمعاه هو وكزنتزاكيس من الأموال بفضل المقابلات وسيناريوهات الأفلام التي أعدّاها وقاما ببيعها للروس. لقد ارتكب كزنتزاكيس خطيئة كبرى حين قال لصديقه "يجب ألا يصرف كلّ منّا بطريقته. سأعطيك النقود وأترك لك أمر صرفها"، لكن صديقه بدأ يسأل كل من يزورنا "كيف تحتمل مثل هذه الأسنان البشعة؟ سأعطيك نقوداً لتغيير أسنانك" أو "ما هذه النظارات السيئة التي ترتديها؟ سأعطيك نقوداً لتشتري غيرها؟. وفي أحد الأيام فاجأنا قائلاً "لقد نفدت كلّ النقود ولا نملك ما يكفي للعشاء". لقد نفدت كلّ النقود التي اعتقدنا أنّها كانت ستكفينا لزيارة اليابان أيضاً. حزن نيكوس لذلك، لكنّه لم يغضب، غضبت أنا من نيكوس لأنّه لم يتكلّم في الأمر. وقلت له "ألا تكلّمه! ألا تكلّمه!" فأجابني بهدوء "وما قيمة ذلك. إنّي أتكلّم حين يكون إصلاح الأمور ممكناً". هذه القضية لم تؤثّر على الصداقة التي كانت قائمة بين كزنتزاكيس وبناييت إلى أن جاء السبب الكافي لإنهائها، والسبب هو أن بناييت كان يمرّ حينها بأزمة حادة، حتى أنّه لم يستطع الكتابة. أما كزنتزاكيس فكان يكتب المقالات ثم يأتي بناييت ليظهر إعجابه بها، ويذيلها باسميهما. وبعد حين اتضح أنّ بناييت كان يستبعد اسم كزانتزكيس من المقالات وينسبها لنفسه.

ولما كان كزنتزاكيس حتى ذلك الحين غير معروف خارج نطاق اليونان، فإنّ المقالات لم تنشر أبداً وضاعت وكان هذا السبب كافياً للقطيعة بينهما.

والسبب الأساسي لمغادرتنا روسيا هو أن كزنتزاكيس وصديقه كانا أبديا تعاطفاً مع أحد الشيوعيين الطاعنين في السن لظلم حاق به من السلطة، ويبدو أنّه كان تروتسكياً. أما أنا شخصياً فقد أعجبت كثيراً بموسكو. لقد واصلنا جولتنا وتركنا روسيا إلى تشيكوسلوفاكيا ثم إلى المانيا. وفي بعض الأحيان كان نيكوس يملي عليَّ فأكتب، لكنه كثيراً ما كان يعطي الأصول المكتوبة كلّها للناشرين ونبقى نحن صفر اليدين.

في أحد الأيام قلت له إنّ تراجيديا (قسطنطين باليوبولوس) لا تعجبني فمزّقها أمام عيني، لكني حين قلت له إنّ مقدّمة الأوديسا لا تعجبني ولا أفهمها أجابني قائلاً: "لست على حق... سأتركها كما هي" و لم يمسسها بأذى.

حين أعطاني كتاب "تصوّف" عام ١٩٢٤ لم أندهش لدرجة الجنون، لكنني ما زلت أعتبره المفتاح الأساسي لكل أعماله. لقد كان العمل الأول الذي طلب مني أن أقرأه. حينها لم أكن قد بلغت سن النضج بعد. وكنت أقرأ روايات فيكتور هيجو وغيرها من الروايات الفرنسية.

يبدو أنه كان قد تعب من زوجته الأولى غلاتيا وأراد أن

يسلك طريقاً معاكساً تماماً. أتصوّر أنّها كانت أرهقته بمحاولاتها المهووسة، وهي تلحّ عليه المرّة تلو الأخرى لكي يصير شيوعياً، ويذهب ليقتل ميكاذو، لكنها هي نفسها لم تكن شيوعية. إنّي لا أرى فيها ما يدلّ على الشيوعية، فهي سيدة برجوازية طيبة، ولست أنا التي تقول ذلك وإنما شقيقتها هي التي كتبت ذلك. لقد كانت امرأة تقدمية تطالب بالحرية للمرأة، وقد كتبت موضوعات جميلة عن المرأة.

كانت غلاتيا جميلة وجذابة، ولا يستطيع أحد الجلوس إليها ولو لبرهة قصيرة من دون أن يحبّها، رغم ما تطلق من شتائم حين تغضب، لكنها على أيّ حال لم تستطع العيش مع كزنتزاكيس. كانت دائمة القلق و لم تستوعب ما كان يكتبه كزنتزاكيس. كانت تعتقد أنّ كلّ ما يكتبه هو مزيّف، وأنّه لا يتقن فنّ الكتابة!! من الذي لا يعرف الكتابة؟ هل كان على نيكوس كزنتزاكيس أن ينتظر غلاتيا لتعلّمه الكتابة!؟

وحين أعيد الآن قراءة أحد كتبها فإنّي أستبعدها من قائمة الكتّاب العظام، ولكن في ذلك العصر كنّا نراها عظيمة.

أحبّها نيكوس حبّاً جمّاً، لقد ساعدته كثيراً بأن دفعته في اتجاه التقدّم، و لم يصبح شيوعياً، لكنّا لا نستطيع أن نتكهّن بمصيره حينذاك في هيراكليون (عاصمة جزيرة كريت اليونانية) لو لم تكن غلاتيا معه. كانت غلاتيا ضد الأوضاع السائدة في عصرها، كانت تدخّن وترتدي البنطلون، وكانت جذابة بصورة تفوق الوصف.

لكن نيكوس لم يكن يميّز بين النساء اللواتي عبرن حياته، أحبّ من أحبّ حتى النهاية، وحفظ جميلها عليه، هنّ أيضاً أحببنه، وغادرن الحياة، واسمه على شفاههن، لكنه لم يرتبط بهن مرّة أخرى. نهاية كل علاقة كانت نهاية أبدية لا يبقى منها سوى الحنان الإنساني. أما العلاقات الجنسية فكانت تنقطع نهائياً، ويبقى نيكوس بعدها سماءً صافية. كان زوجاً وفياً وكان ذلك شيئاً من طبعه. هكذا كان مع غلاتيا، ومع إيللي لاميروزو الفيلسوفة، وراشيل مينخ الشاعرة، وإيريس لاتفي المدهشة.

يقولون عنه إنّه لم يحبّ النساء بدليل أنّه قدّم خلال كتاباته نماذج سلبية عنهن، لكن ألم يكتب في "تقرير إلى الجريكو" قائلاً: "إنّ كلّ ما هو خير في حياتي منحتني إياه النساء".

كانت إيللي لامبروزو قد اشترطت عليه أنّها لن تزور منزلنا إلا في غيابي، فردّ عليها "ولن تدخلي منزلنا أبداً إلّا إذا كانت هيلين حاضرة". وهكذا فإنّها لم تأتِ أبداً إلى منزلنا. أما كزانتزاكيس فكان يقول لي بين حين وآخر "سأذهب لزيارة إيللي". وكنت أردّ عليه "اذهب يا عزيزي"، لم أكن أشعر بالغيرة تجاه ماضيه، فهذا شيء يخصّه وحده.

لم نفعل أيّ شيء لنمنع أنفسنا من الانجاب، إلّا أننا لم ننجب، ربما كانت حالتنا هي السبب، لكن نيكوس اعترف لي ذات يوم بأنّه لو كان رُزق فتاتاً فإنّه ما كان ليستطيع أن ينام نوماً هادئاً، ولكان حاله مثل الكريتيين المتقدمين في العمر، وكان سيسأل

"متى عادت؟" و"إلى أين ذهبت ومع من؟" ولعجز عن الكتابة لانشغال عقله بها. كان سينزعج لأسباب أخلاقية، ويتحوّل إلى كريتي حقيقي. لقد اعترف لي بكلّ هذه الأشياء التي لا تصدق.

كانت حياتنا مرحة، و لم يكن يغضب أبداً. أتذكّر أنّه غضب عليّ مرّة واحدة، لكن غضبه لم يدم أكثر من دقيقة واحدة. كان يزعجه أن يرتدي قميصاً لذلك كان يرتدي بدلته على البيجاما عندما نخرج للنزهة. فقلت له ذات مرة "ماذا سيقول الناس... سيقولون إنّ هذه المرأة تعتني بنفسها ولا تعتني بزوجها"، فردّ قائلاً "لقد جلبتِ الكدر إلى هذه النزهة"، لكنني واصلت إصراري قائلة "من الآن فصاعداً يجب عليّ أن أراقبك لأرى كيف ترتدي ملابسك"، وهكذا عدنا أدراجنا إلى البيت. كان الناس يعرفونه ويحبّونه ويحترمونه. كان رزيناً يستحق الحب.

من الذكريات التي لا تنسى أننا قابلنا بيرفيلي ذات يوم في شارع "استاذيّو" في أثينا. كان بيرفيلي يتحدّث كلّ يوم في الإذاعة ضدّ نيكوس متّهماً إياه بموالاة منظمة "إيام" ومناصرة البلغار، وغير ذلك من التهم. اندفع بيرفيلي نحو كزنتزاكيس وقال له "يا عزيزي نيكوس لا تصدّق ما أقوله في المذياع. إنّها الضرورة والحاجة. يجب أن تعلم أني أكنّ لك كلّ حب". ثم انحنى وقبّل كزنتزاكيس الذي لم يغضب منه أبداً. ولو كنت مكانه لقلت لبيرفيلي "ألا تخجل أيها المسكين... إنّك مجرّد بصقة ما هذا الذي تقوله الآن!!".

لم يكن يملك ذاكرة سوء. ذات يوم عثرنا بين حوائجنا على نحت من الفضّة للثائر اليوناني كالوكُتروني، وكانت لي رغبة شديدة في أن أعلّقه على جدار منزلنا، لكن نيكوس قال لي إنّه ينوي إرساله للكاتب ميلاس، الذي ألّف كتاباً عن كالوكتروني. فقلت له "هل سترسله لمن يكيل لك الشتائم المرّة تلو الأخرى!!؟" فأجاب "كتابه جيّد، بل هو كتاب عظيم".

عشنا فقراء

حين كانت تنتابه الرغبة في الكتابة كان يجلس على مكتبه، أما في الأسفار فكان يكتب على سريره. لم يكن وجودي يزعجه رغم زلّاتي الكثيرة. أذكر أنّني ناديته يوماً من الطابق العلوي قائلة "نيكوس... كيف تكتب كلمة الوراثة؟" فأجابني على سؤالي، وبعد قليل ناديت أسأله عن معنى إحدى الكلمات فرفع قلمه إلى أعلى قائلاً: "إلى متى؟" فأجبته "إلى الأبد" وأضفت "هل تريد أن أعدّ لك قهوة؟" فأجاب "نعم".

لم يغضب يوماً، و لم يقل لي لقد أضعت تسلسل أفكاري. كان يرفع قلمه ويقول "إلى متى؟" كان يتمتّع بأخلاق رفيعة و لم يكن يلقي على عاتقي المشاكل التي تضايقه. مواردنا الإقتصادية كانت محدودة. صحيفة "كل يوم" هي الوحيدة التي انتظمت لبعض الوقت في إعطائه مرتّباً شهرياً حين كانت تستكتبه. لقد عشنا فقراء. وصدق كزنتزاكيس في ما يردّده أهله الكريتيين من

قول وهو: "حين تكون بصحبة رفيق جيد فإنّ الفقر والجوع لا يعنيان شيئاً".

استغرق بناء منزلنا في جزيرة ايجنه زمناً طويلاً. لقد بنيناه على مراحل، وساعدتنا الأسفار في أن نقتصد لنكمل بناءه، أما الطعام فكان يكفيه القليل من الفواكه.

صار قديساً

حين أُعيد له اعتباره أطلق زفيراً عميقاً وقال "لقد جاء متأخراً، وهو لا يهمّني الآن على الإطلاق". وكان حينها يعاني من المرض، أمّا أنا فقد حلّقت عالياً من الفرح لأن الكريتيات الجميلات صرن يزرننا. كان يقول لي "لا تصدّقيهم يا عزيزتي – إنهم لا يدرون ما يقولون". كان قد تخلّى عن المظاهر الخادعة، وأقسم أنّه صار قديساً خلال سنواته الأخيرة. صار يستمتع بحساء السمك، وبالتين الذي يقطفه كل صباح، وكان يقدّس الشمام والعنب، لكنّه كان يحترق في قرارة نفسه من أجل إكمال أعماله.

أراد أن يعيش اثنتي عشرة سنة أخرى، فلقد ظلّ مقتنعاً بأنه سيعيش مثل غوته الألماني اثنين وثمانين عاماً، لكنّه مات في الرابعة والسبعين وليس في الثانية والسبعين كما أشيع. لقد وجدنا خلف لوحة عائلية في المنزل التاريخ الحقيقي لميلاده والذي هو عام ١٨٨٣ وليس ١٨٨٥ كما كانت شقيقته تقول.

كيف ضاعت جائزة نوبل؟

كان يقول لي معلّقاً على الانتقادات والإساءات التي تصدر عن ميلاس "دعيه يا عزيزتي يقول ما يريد فلا أحد يهتم به"... إلّا أنّ هذا السلوك الأخلاقي لم يشفع له أمام أعدائه، فبذلوا جهدهم لحرمانه من جائزة نوبل للآداب. وقتها كان صاحب صحيفة "الإستية" سفيراً لليونان في ستوكهو لم ومن هناك واصل شنّ حربه على نيكوس. الجميع كانوا يعلمون أنّه يستحق الجائزة وقد فقدها بصوت واحد. كتب لي ألبير كامو يقول إنّ كزنتزاكيس "يستحقّ هذه الجائزة مائة مرّة أكثر منّي". كتب نيكوس وهو على فراش الموت خطاباً لألبير كامو يهنّئه بنيل الجائزة. وكنت أنا من أوائل الذين كتبوا يهنّئون الشاعرين اليونانيين سيفيريس وإِليتيس بعد حصولهما على جائزة نوبل.

بعد مرور عشر سنوات على وفاته أصدرت كتابي "الذي لا يُسَاوِم". وحتى ذلك الحين لم يكن في استطاعتي أن أمسّ خطاباته. لكنّي بدأت أولاً باستنساخها على الآلة الكاتبة لكي لا يضيع منها أيّ أثر شخصي، ولكي لا أرى خطّ يده، ثم أخذت من الخطابات كلّ ما يساعدني على إضاءة كزنتزاكيس الكاتب وترجمته إلى اللغة الفرنسية. بعد ذلك أصدرت الكتاب بالفرنسية ولم أُترجمه لليونانية إلّا بعد عشرين عاماً.

هو نفسه طلب مني أن أكتب. قال لي "اكتبي انت، سيقولون الكثير من الأكاذيب عن اسطورة كزنتزاكيس التي

ستلوكها الألسن. اكتبي أنت لأنك تعرفيني". وكنت أردّ عليه "هذا مستحيل... هذا مستحيل".

ليقولوا ما يشاؤون، غير أنّ الحقيقة هي أنّ كزنتزاكيس كان متديّناً تديّناً عميقاً. بحث عن الإله لكنّه لم يقل... ها... قد وجدته، وآمنت به، إنّه يؤمن بقوة أعلى منّا تحرّكنا. كان يبحث لاكتشاف حدود دورنا، وماهية وجودنا على هذه الأرض. وكان معنى الإله بالنسبة له هو أن نكون أحسن مما نحن عليه. أنا أيضاً أرى أنّ هنالك قوّة بداخلنا تدفعنا إلى الكمال.

لم أنحدر من بيت متديّن وكنّا نذهب أنا ونيكوس إلى الكنيسة يوم الجمعة العظيمة "من أيام عيد الفصح". تعجبني كثيراً خطبة الكنيسة، وأحبّ شعائر الأسبوع المقدّس لدرجة الجنون، خصوصاً حين يكون هنالك من يجيد التلاوة.

يقولون إنّه كان شيوعياً، لكنه في الحقيقة كان معارضاً لكلّ المؤسسات السائدة. كان يريد للإنسان أن يتحرّر بإرادته، وأن ينعتق من أسر المؤسسات الزائفة.

عشت كلّ هذه السنوات لأنّ ذكراه تعضدّني. سألونا ذات يوم "هل لكم أبناء؟ فأجاب "كتبي هي أبنائي".

إنّني مناضلة وأُعضّد الحق قدر المستطاع. أودّ لو أستطيع النضال من أجل شيلي ومن أجل أفريقيا، هناك حيث يعانون الجوع. لقد أحببت اليونان لكنني عانيت الكثير فيها. كان يمكن أن أقدّم شيئاً ذا قيمة. لقد كان نيكوس يقول لنا "احمدوا الله أنكم مرضى، إذ لو كنتم أقوياء لأدرتم العالم رأساً على عقب".

الفهـرس

"تصـوف" تجـربة أخـرى في عـمـق التجارب الإنسانية الحية التي يـتصدّى لها كزنتزاكيس، في أشكال من الكتابة الخاصة التي تثير الأسئلة الراهنة دائماً.


ISBN:2-84305-074-X
9 782843 050749